162
د.ن/162
1970

العربية السعودية

وزارة المعارف

عامة للأبحاث والمناهج والمواد التعليمية

قررت وزارة المعارف تدريس هذا الكتاب وطبعه على نفقتها.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقرر علم التوحيد

للسنة الأولى الثانوية

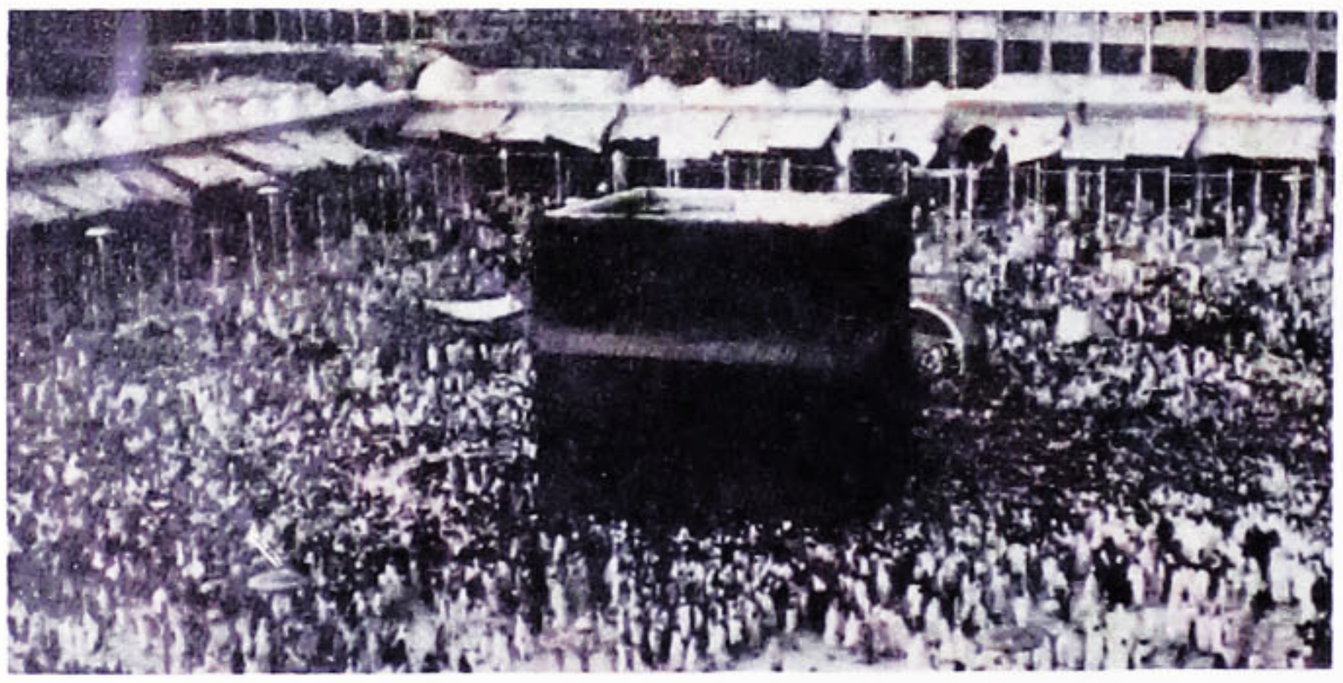

لطبعة الأولى

١٣٩٥ - ١٣٩٦ هـ

١٩٧٥ - ١٩٧٦ م

يوزع مجانًا ولا يباع

Marfat.com

لكة العربية السعودية

زارة المعارف

ة للأبحاث والمناهج والمواد التعليمية

قررت وزارة المعارف تدريس هذا الكتاب وطبعه على نفقتها.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقرر علم التوحيد

للسنة الأولى الثانوية

تأليف

محمد قطب

لطبعة الأولى

١٣٩٥ - ١٣٩٦ هـ

١٩٧٥ - ١٩٧٦ م

يوزع مجانا ولا يباع

Marfat.com

59977

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

نحمد الله تعالى ونثني عليه بما هو أهله، ونصلي ونسلّم على نبيّنا محمّد صلى الله عليه وسلّم خاتم النبيّين وأكرم المُرسلين، وعلى آله وصحبه ومَن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد، فهذا كِتابٌ يتضمَّن منهج علم التوحيد المُقرّر على السنة الأُولى الثانوية، ويتناول بالحديث موضوع الإيمان بوجود الله ووحدانيته وصِفاته، راعيتُ فيه أن يكون مُبسَّط العرض مُيسَّر الفَهْم، شارحًا بقدْر الإمكان ما وَرَدَ في الكتاب من استشهادات بالآيات والأحاديث، شرحًا يجعل الطالب يعيش بفكره ووجدانه في معانيها الكريمة، ويحاول أن يستشعر في قلبه عظمة الله سبحانه وتعالى، فإنَّ المَعنى الحقيقي للإيمان لا يتحقَّق في النفْس بمجرّد الاطلاع على النصوص ومحاولة حفظها عن ظهر قلب، بل بتدبر معانيها، واَسْتِشعار عظمة الله من خلالها، بما يملأ القلب بالخشية منه سُبحانه والتطلُّع إلى رحمته وإحسانه والعمل بما يحبّه ويرضاه، كما قال تعالى في سورة الإسراء:

﴿ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾.

نسأل الله أن ينفعنا بما علمنا، وأن يوفقنا إلى حُبّه وطاعته، ويهدينا إلى سواء السبيل.. والله ولي التوفيق.

محمّد قُطب

Marfat.com

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٣
الإسلام	٥
أصول العقيدة الإسلامية	٧
الدين والفطرة	١٠
طريقة القرآن	١٨
القرآن والوجدان	٢٠
١) آيات الله في الكون	٢١
٢) ظاهرة الموت والحياة	٢٥
٣) الرزق	٢٨
٤) الأحداث الجارية	٣٣
٥) علم الله الشامل للغيب	٣٦
الدليل العقلي	٤٢
تيقظ الإيمان المركوز في الفطرة وقت الشدة	٦٢
القرآن يتولى الرد على دعاوي المبطلين	٦٧
١) الشرك	٦٩
٢) ادعاء الولد لله	٧٣
٣) انكار البعث	٧٨
تثبيت الإيمان	٨٢
١) التذكير بعظمة الله وآيات قدرته في الآفاق والأنفس	٨٣
«أ» آيات الخلق والإبداع في السماوات والأرض	٨٤
«ب» آيات القدرة المعجزة في الأنفس	٨٦
«ج» في نعم الله على العباد	٨٧
«د» في تدبير الكون بلا شريك	٨٨
«هـ» في تأييد الرسل بالمعجزات	٨٩
(٢) التذكير بمراقبة الله للإنسان	٩٠
(٣) توجيه القلب البشري إلى ذكر الله	٩٠
(٤) قصص الأنبياء	٩١
(٥) صور المؤمنين والكافرين	٩٥
تحكيم شريعة الله	١٠١
الإيمان بأسماء الله وصفاته	١١١

Marfat.com

الإسلام

الإسلام بمعناه العام هو إسلام الوجه لله، أي التوجُّه الكامل إلى الله، والخضوع الكامل لأوامر الله.

يقول القرآن الكريم:

﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

(سورة البقرة: الآية ١١٢).

ويقول: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾؟ (سورة النساء: الآية ١٢٥).

واسلام الوجه لله، بمعنى إسلام النفْس كلها لله، هو الأمر الذي يطلبه الله من البشر كافَّة بما أنه هو خالقهم سبحانه وخالق هذا الكون كله والمتصرف فيه وحده. فهو حق الاله على المخلق، وهو كذلك مقتضى عبودية الخلق لربهم وخالقهم.

وهذا الإسلام هو الذي كان عليه آدم ونوح والنبيون من بعده إلى محمّد صلى الله عليه وسلّم، وكان عليه كذلك كل من اتبع الأنبياء منذ مولد البشرية.

جاء في القرآن الكريم عن إبراهيم عليه السلام:

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (سورة البقرة: الآيتان ١٣٠ ـ ١٣١).

ويقول على لسان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام:

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴾

(سورة البقرة: الآيتان ١٢٧ ـ ١٢٨).

ويقول: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا ﴾

(سورة المائدة: الآية ١٣٢).

Marfat.com

ويقول عن يعقوب وبنيه:

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ (البقرة: ١٣٢).

ويقول على لسان يوسف عليه السلام:

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾ (سورة يوسف: الآية ١٠١).

فالإسلام بهذا المعنى هو دين الأنبياء جميعًا ودين المؤمنين بالله ورسله من لدن آدم حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

ولكنَّ الله تفضَّل على أُمَّة محمّد صلى الله عليه وسلّم فخصَّها باسم «الأُمَّة المسلمة» وباسم «المسلمين» استجابة لدعاء سيّدنا إبراهيم من قبل وتفضلاً منه سبحانه. يقول القرآن:

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾ (سورة الحج: الآية ٧٨).

وفي هذا التفضل من الله سبحانه وتعالى تكريم لهذه الأُمّة، فكأنما تحقق فيها معنى الإسلام بأكثر مما تحقق في أيّ أُمَّة من قبل حتى استحقت أن تسمى بالمسلمين. ولا عجب في ذلك فالله سبحانه وتعالى يقول في وصف هذه الأُمَّة:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾

(سورة آل عمران: الآية ١١٠).

والآن فلننظر في عقيدة هذه الأُمَّة التي رفعتها إلى هذه المنزلة السامية التي استحقّت عليها هذا التكريم الرباني، بأن يكون اسمها الأُمَّة المسلمة، وأن تكون ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾.

Marfat.com

أصول العقيدة الإسلامية

عن عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، قال: بينا نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلّم ذات يوم، إذ طلع علينا رجُل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلّم فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمّد! أخبرني عن الإسلام. قال: «الإسلام أن تشهد ألاّ إله إلاّ الله وأن محمّدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحجّ البيت إن اَستطعتَ إليه سبيلاً». قال: صدقت. فعجبنا له: يسأله ويصدقه! قال: فأخبرني عن الإيمان. قال: «الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدَر خيره وشره». قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان. قال: «أن تعبد الله كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». قال: فأخبرني عن الساعة. قال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل». قال: فأخبرني عن أماراتها. قال: «أن تلد الامة ربتها، وأن ترى الحُفاة العُراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان».

قال: ثم انطلق فلبثت مليًا، ثم قال لي: «يا عمر! أتدري مَن السّائل»؟ قلتُ: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنه جبريل أتاكم يعلّمكم دينكم». رواه مسلم.

فيتبين من هذا الحديث أن هُناك أُصولاً ستة للعقيدة الإسلامية:

١ ـ الإيمان بالله.

٢ ـ الإيمان بالملائكة.

٣ ـ الإيمان بالكتب السماوية.

٤ ـ الإيمان بالرُسُل.

٥ ـ الإيمان باليوم الآخر.

٦ ـ الإيمان بالقضاء والقدَر.

Marfat.com

والإيمان بالله هو موضوع حديثنا في هذا الكتاب. ولكنا نعرض عرضًا موجزًا لهذه الأُصول الستة لكي نتبين المقصود من كل منها.

١) فالإيمان بالله يعني الإيمان بوجوده سبحانه وتعالى وبوحدانيته وبصفاته التي وصف بها نفسه في القرآن الكريم.

٢) والإيمان بالملائكة يتضمَّن الإيمان بوجودهم، وبأنهم خَلْقٌ من خَلْقِ الله، يعبدونه سبحانه وتعالى، ولا يفترون عن عبادته ليلاً ونهارًا، ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. وأن لهم أعمالاً كلفهم الله بها وهم يؤدّونها في طاعة كاملة لله، ومن بينها التنزل بالوحي على رُسُل الله وأنبيائه، ومن بينها كتابة أعمال البشر وتسجيلها، ومن بينها التنزل على قلوب المؤمنين بالطمأنينة والبُشرى... الخ.

٣) والإيمان بالكُتُبِ السّماوّية يتضمَّن الإيمان بكل ما أنزل الله على رُسُله من الكتب بما فيها القرآن الكريم وإن كانت الكتب السماوية السابقة كلها قد حُرِّفتْ إلاّ القرآن الكريم وحده حفظه الله وقال سبحانه: ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾.

٤) والإيمان بالرسل يقتضي الإيمان بأن الله سبحانه وتعالى أرسل إلى البشرية رُسُلاً متعددين، منهم من قصه الله على نبيّه محمّد صلى الله عليه وسلّم في القرآن ومنهم من لم يقصصه عليه كما قال تعالى:

﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ ﴾ (سورة النساء: الآيتان ١٦٣ ـ ١٦٤).

وأن هؤلاء الرُّسُل جميعًا قد أوحى الله إليهم أن يبشروا الناس وينذروهم. يبشروهم بالجنة لمن أطاع الله ورسله، وينذروهم بالنار لمن

Marfat.com

عصى الله ورسله، كما قال القرآن بعد الآيتين السابقتين:

﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾.

وأنهم جميعًا جاءوا بكلمة واحدة تلقوها من عند الله وأمروا بتبليغها للناس، وهي كلمة ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ والأمر بعبادته وحده دون شريك ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾.

٥) والإيمان باليوم الآخر معناه الإيمان بالبعث بعد الموت، وأن الله يبعث الناس جميعًا يوم القيامة ويحشرهم إليه، ويحاسبهم على كل شيء فعلوه في الدنيا ثم يجزيهم به: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ ﴾ كما يشمل الإيمان بالجنة والنار وكل ما جاء في القرآن والحديث عن البعث والحشر والحساب والجزاء.

٦) والإيمان بالقضاء والقَدَر يقتضي الإيمان بأن كل ما يحدث للإنسان من خير أو شر فهو مقدر له: «وأن ما أصابك لم يكن ليخطئك وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك»، كما يقتضي الإيمان بالعدل الإلهي فيما يجري به القضاء والقدر.

تلك هي الأُصول الستة للعقيدة الإسلامية، وأولها وأعظمها الإيمان بالله، الذي سنفرد له الحديث من هذا الكتاب.

Marfat.com

الدّين والفطـرة

كل مولود يولد على الفطرة .

والفطرة بذاتها تتجه إلى الله ، عـارفة بوجوده سبحانه ، ومؤمنة بأنه إله واحد لا يوجد في الكون كله سواه .

كيف تهتدي الفطرة إلى خالقها ؟

إن الله سبحانه وتعالى يخبرنا في كتابه الكريم أنه حين خلق الخلق عرفهم بنفسه ، وبأنه جلَّت قدرته هو ربهم الذي خلقهم ، والذي ينبغي أن يدينوا له بالعبودية :

﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم : أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا ﴾ (سورة الأعراف : الآية ١٧٢) .

والرسول الكريم صلى الله عليه وسلّـم يخبرنا كذلك :

« ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه كمـا تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء[1] ؟ » ، ثم يقول :

﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ متفق عليه .

والحقيقة أن الفطرة البشرية تتيقظ لوجود الخالق في سن مبكرة جدًّا ، أصغر بكثير ممـا نظن !

فنحن نظن عـادة أن الشخص الكبير وحده هو الذي يتفكّر في وجود الله سبحانه وتعالى وفي وحدانيته . ولكننا إذا لاحظنا حيـاة الطفل الصغير نجد أنه في مرحلة معيَّنة من عمره يبدأ يسأل والديه أسئلة لا تنتهي :

---

(١) الجمعاء هي السليمة المكتملة الأعضاء . والجدعاء هي المقطوعة الأذن .

Marfat.com

من الذي عمل السماء؟ لماذا كانت السماء زرقاء؟ أين تذهب الشمس في الليل؟ لماذا لا تظهر الشمس لنا في الليل؟ أين يذهب النُّور حين يأتي الظلام؟ لماذا تلمع النجوم؟ أين تنتهي الأرض؟ لماذا كانت هذه الزهرة ذات رائحة والزهرة الأُخرى ليس لها رائحة؟ من أين جئت؟ أين كنت قبل أن أجيء؟ ... الخ .. الخ ..

فما معنى هذه الأسئلة في الحقيقة وما دلالتها؟

إن دلالتها الحقيقية أن فطرة هذا الطفل قد بدأت تستيقظ. بدأت تتعرف على خالق السماوات والأرض من خلال مخلوقاته المشهودة المحسوسة. بدأت رويدًا رويدًا تتعرَّف على حقيقة الأُلوهية التي أشهدها الله عليها منذ خلقها. وبدأ إدراكها لها ينمو كما تنمو البذرة الكامنة في باطن الأرض، حتى تترعرع وتخضر.

وأن هناك تأثيرات عدة تقع على حس الإنسان فتوقظه إلى حقيقة وجود الله ووحدانيته وتفرده.

فالكون بضخامته الهائلة لا بُدَّ أن يوقظ الإنسان إلى هذه الحقيقة.

فهذه الأبعاد الهائلة في السماوات والأرض. وهذه الأجرام السماوية الضخمة التي لا يحصيها العد.. من أوجدها؟

إن الأرض ـ وهي جرم صغير جدًّا بالنسبة للأجرام السماوية ـ تحتوي من الجبال والسهول والمحيطات والبحار والأنهار ما نستغرق سنوات العمر كلها في محاولة التعرف عليه، ثم لا نستطيع أن نتعرَّف إلا على جزء يسير منه. فكيف ـ مثلاً ـ بالمجموعة الشمسية التي تكون أرضنا جزءًا منها؟ وكيف بالمجرة التي تعتبر مجموعتنا الشمسية جزءًا ضئيلاً منها، وكيف بالكتل السماوية الأُخرى التي تشمل ملايين وملايين من مثل مجرتنا؟ وملايين وملايين من النجوم التي تُعتبر شمسنا صغيرة بالقياس إليها؟!

والكون مع ضخامته هذه دقيق دقَّة معجزة.

Marfat.com

فالليل والنهار يتعاقبان في دقة متناهية إلى حد أننا نضبط ساعاتنا عليها؛ والحقيقة أن الكون كله مضبوط في دورته الفلكية لدرجة أن ساعات المراصد ـ التي هي أدق الساعات التي بين أيدينا، والتي نضبط عليها ساعات الإذاعة وغيرها، والتي تقيس الوقت بجزء على ألف من الثانية ـ هي ذاتها تضبط على دورة الفلك المتناهية في الدقة، والتي لا تضطرب دورتها على مر العصور والأجيال، إلا أن يشاء الله..

ثم إن كل كائن من الكائنات التي خلقها الله يتسم بهذه الدقة المعجزة سواء أكان من الكائنات الحية أم الكائنات الجامدة.

هل رأيت إلى الخلية الحية الدقيقة المتناهية في الصغر حتى أنها لا ترى إلا بالمجهر؟ ومع ذلك فهي تنمو وتنقسم وتقوم بمهام عجيبة غاية في العجب، يقف الإنسان إزاءها حائرًا، خاشعًا أمام قدرة الله. فمن الذي أودعها سرّ الحياة؟ ومن الذي هداها لهذا النشاط العجيب الذي تقوم به إلا الله سبحانه وتعالى؟!

إن الجرثومة لا يمكن أن ترى بالعين. ومنها نوع دقيق يسمى «الفيروس» لا يرى حتى بالمجهر العادي. ومع ذلك فأنت تعرف مما درست في العلوم أنها يمكن أن تصيب الإنسان بأفتك الأمراض ما لم يتحصَّن ضدّها بالأدوية أو الأمصال.

والكائن المتعدد الخلايا ـ وفي قمته الإنسان ـ يكون في منشئه خلية واحدة ملقحة، ثم تظل تنقسم وتنمو حتى تصبح كائنًا مُتكاملاً. فأيّ قدرة تمنحه الحياة والحركة والنشاط غير قدرة الله؟

وإن أعجب ما في عملية الانقسام هذه أن الخلايا تكون كلها متماثلة ـ لظاهر العين ـ في نشأتها الأُولى، ثم يصدر إليها الأمر فتتخصَّص وتتشكَّل بشكل مُعيَّن. فخلية تتجه إلى مكان مُعيَّن وتصبح أُذنًا أو جُزءًا من أُذن. وخلية تتجه إلى مكان آخر فتصبح عَيْنًا أو جُزءًا من عين. وثالثة تصبح خلية من خلايا المُخّ. ورابعة تتحوَّل إلى عظام... وهكذا. فأي أمر هذا الذي صدر إليها فأطاعته ونفذته بهذه الدِّقة العجيبة وهي شيْ لا يكاد يرى بالعين؟ إنه أمر الله الخالق المُبْدِع. يأمرها

Marfat.com

فتطيع ، وتتحرك بمقتضى مشيئته سبحانه فتتكوَّن كمـا أَرادها الله ، وتقوم بالدَّوْر الذي أراده لهـا الله .

وهل رأيت إلى تلك الزهرة الجميلة ذات الرائحـة العطرة والألوان المتعددة المتداخلة ؟

من الذي أودع فيها هذا العطر ؟ وكيف تجمَّعت فيها تلك الألوان ؟

ترى لو حاولتَ أنتَ أن تُعطِّرَ زهرة واحدة عطرًا يفوح من الصباح إلى المساء دون أن يتبدَّد ويضيع . ولو حاولتَ أن تُلوِّنَ بكلٍّ ما لديك من ألوان زهرة واحـدة بحيث تبقى ألوانها ثابتة مـا بقيتِ الزهرة ، فكم يُكلِّفك ذلك من الجُهد ، وإلى أيِّ مدى تنجح محاولتك ؟

ولو أن كل البشر على ظهر الأرض شغلوا أنفسهم بهذه المهمة بالنسبة لكل الزهور النابتة على سطح الأرض أو جوف البحر .. فهـل يستطيعـون ؟ وإن اَسْتطاعوا فكم يبقى من وقتهم وجهدهم ليقوموا بغير ذلك من الأعمـال ؟

ولكن الزهرة ـ وملايين الزهور في الأرض ـ تخرج هكذا معطَّرة ملوّنة بهيجة المنظر من عند الله ؟ بغير جهد على الاطلاق ! ودون أن يشغله هذا الأمر سبحانه عن تدبير الكون الهـائل العريض كله : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا [(١)] وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾ لأنـه سبحانـه يقـول للشيء ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ .

● ● ●

وظاهرة الموت والحياة كذلك تلفت حسّ الإنسان إلى قـدرة الله المعجزة التي تحيي وتميت .

فما الحياة في حقيقتها ؟ إنها سرّ معجز لا يعلـم أحـد كنهه ولا يستطيع تفسيره . وكل مـا حاوله البشر حتى اليوم هو تفسير بعض ظواهر الحياة من حركة ونمو ووظائف

---

(١) أي لا يتعب سبحانه من حفظهما.

Marfat.com

مختلفة تقوم بهـا الأعضاء. أمَّا الحياة ذاتها: ما هي؟ كيف توجد في الكائن الحيّ؟ كيف توجهه إلى أداء وظائفه التي يقوم بها؟ هذا كله سرّ مُبهم لا يقدر البشر على إدراكه. وعبثًا حـاول البشر ـ بكل علمـائهم، وبكل ما لديهم من علـم ـ أن يخلقوا خلية واحدة. واحدة فقط، من بلايين البلايين من الخلايا الحية التي يزخر بها الخلق الرباني، والتي أوجدها الله بعلمه وقدرته دون شريك؟

● ● ●

والرزق الجاري على الإنسان، سواء في صورة مطر هاطل من السماء، أو زرع نابت من الأرض، أو أسماك وطيور وحيوان، أو كنوز ومعادن في باطن الأرض، أو هواء يتنفسه، أو ريح تجُري سفنه في البحر، أو طاقات تدير آلاته كطاقة البخار أو طاقة الكهرباء أو طاقة الذرة أو طاقة الوقود أو طاقة المـاء المنحدر من المرتفعات.. كل ذلك مَنْ يجريه إلا الله؟ ﴿ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾.

● ● ●

والأحداث التي تجري في الكون وفي حياة الإنسان، من فرح وحزن، وضحك وبكاء، وفقر وغنى، وصحة ومرض، وموتى يموتون ومواليد يولدون في كل لحظة من لحظات الليل .. من ذا الذي يحدثها ويرتبها ويدبرها إلا الله مدبر كل شيء في هذا الكون؟

● ● ●

والغيب المجهول الذي يتشوف[1] الأفضل من ذا دفعـا للالتبـاس لمعرفتـه فلا يستطيع مهمـا حاول..

يريد الإنسان أن يعرف كيف ستكون حياته في المستقبل. بل يريد أن يعرف ماذا يكون نصيبه في العـام المقبل. بل يريد أن يعرف مـا يحدث بعد شهر أو أسبوع

---

(١) أي يتطلع بشدة وينشوق.

Marfat.com

أو يوم.. بل يريد أن يعرف مـاذا يحدث بعد ساعة من الزمان بل بعد لحظة. لحظة واحدة من الزمن المقبل لا يستطيع ان يعرف ما وراءها، وما تجلبه إليه من خير او شر... فمن ذا الذي يعلـم ذلك الغيب المجهول كله علـم شمول وإحاطة إلا الله وحده الذي يخلق كل شيء ويعلمه، ولا يند عن علمه شيء في السماوات ولا في الأرض؟

• • •

وكثير من الأُمور وكثير، يلقى تأثيره على القلب البشري فيستيقظ لحقيقة الأُلوهية. يعرف أن الله موجود، وأنه واحد لا شريك له، وأنه سبحانه متفرد بالكمال والقدرة، وبالجلال والعظمة، وبالسلطان الذي لا تحده حدود. فيكون على الفطرة السوية، ويكون كمـا خلقه الله في أحسن تقويم: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ (سورة التين: الآية ٤). ويكون مهتديًا مؤمنًا، مرضياً عنه في السماوات والأرض، عمره في الأرض مبارك بالأعمـال الصالحـة، وله في الدار الآخـرة جنة عرضها السماوات والأرض، ورضوان من الله أكبر.

• • •

ولكن الفطرة تمرض أحيانًا وتنتكس فيصبح الإنسان أسفل سافلسن:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾ (سورة التين: الآيات ٤ـ٦).

يتبلَّد الحس أحيانًا فينسى آيات الإعجاز في الكون والحياة. ينسى القدرة المعجزة التي تجري الرزق وتجري الأحداث وتشمل بعلمها الغيب...

إن الإنسان حين يمر بتجربة جديدة يكون متفتحًا لهـا بكل حواسه. فإذا رأى مشهدًا لأوَّل مرة، أو سمع شيئًا جديدًا لأوَّل مرة، أو ذهب إلى مدينة جديدة أو

---

(١) أي حين يكفر بالله ويحيد عن الطريق المستقيم.

Marfat.com

شارع أو مسكن جديد فإنه يكون منتبهًا بكل حواسه يريد أن يتعرَّف على تفصيلات الشيء الجديد ويكون له في نفسه وقع بالغ لأنه جديد عليه. ولكنه حين يألف المشهد أو المكان، وتتكرر رؤيته له فإن حواسه تمر عليه بغير انتباه كبير، بل قد تمر عليه بغير انتباه على الاطلاق!

وكذلك يفعل الإنسان أحيانًا مع الله! ينسى أنه الخالق وأنه المدبر وأنه الرازق وأنه المحيي والمميت!

ويمر بهذا الكون فلا يلتفت إلى شيء من الآيات فيه!

لا يلتفت إلى الشمس البازغة ولا إلى النور حين يدبر ويبتلعه الظلام!

لا يلتفت إلى الزهرة الجميلة المعطّرة البهيجة الألوان!

لا يلتفت إلى صوت الطائر الرقيق الذي يغني مرفرفًا بجناحيه فوق الغصن!

لا يلتفت إلى الماء الهاطل من السحاب ولا إلى الرعد والبرق في السماء!

لا يلتفت إلى الطفل الذي ولد ولا الإنسان الذي مات!

لا يلتفت إلى عجزه المطلق إزاء قدرة الله!

أو يتبلَّد حسّه أحيانًا لسبب آخر. لأنه مشغول بطعامه وشرابه وشهواته. مشغول بمتاع الدنيا القريب، فيلهيه ذلك المتاع عن التدبر في آيات الكون والتقرب إلى خالق الكون والحياة، ويلهيه عن ذكر الآخرة وما فيها من حساب وعقاب.

أو يتبلَّد حسّه لأنه لا يريد أن يلتزم بأوامر الله. يريد أن يطغى في الأرض ويتبع هواه. يريد أن يتجاوز الحلال الذي أحلَّه الله لأن في نفسه شراهة لا تقنع بما أحلَّه الله. أو يريد أن يسيطر على الآخرين ويستعبدهم لأهوائه فيعتدي على أموالهم أو أعراضهم أو دمائهم بغير حق، ويريد أن يكون إلهًا في الأرض يُطاع من دون الله.

أو يتبلَّد حسّه لأن في نفسه كبراً يستكبر به على عبادة الله.

أو يتبلَّد حسّه لأنه مفتون بما بين يديه. مفتون بعقله أو بجسمه أو بماله أو بأي شيء مما حباه به الله، فيعتقد أنه من عند نفسه، وينسى أنه من عند الله!

Marfat.com

يتبلّد الحسّ وتمرض النفس لسبب من هذه الأسباب، أو لغيرها مما يلم بالنفس من انتكاسات وانحرافات، فتنسى الله النسيان كله، أو تشرك به سواه، وتتوهم أن أحدًا أو شيئًا ما في هذا الكون كله له شأن مع الله!

عندئذ لا يعود الإنسان كما خلقه الله على الفطرة السوية في أحسن تقويم، وإنما يصبح أسفل سافلين، فيتملكه الشيطان يصرف شؤونه بعيدًا عن الهداية الربانية، وبعيدًا عن رضوان الله[1].

ولكن الله ـ من رحمته بعباده ـ لا يتركهم هكذا بغير هداية. بل يرسل إليهم الرُسُل يدعونهم إلى الهدى ويعيدونهم إلى الحق.

ولقد أرسل الله محمّدًا صلى الله عليه وسلّم ليكون خاتم النبيّين، ويكون بشيرًا ونذيرًا للناس كافة إلى يوم القيامة. وأنزل عليه القرآن الكريم يهدي للتي هي أقوم، وتكفل سبحانه بحفظه فقال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (سورة الحجر: الآية ٩)، وجعله شاملاً لكل ما يرد الفطرة إلى سلامتها، وينفي عنها خبثها وأمراضها، ويدلها على حقيقة الأُلوهية، ويعرفها بالله الحق، خالق الكون ومدبره، ومالك الأمر كله بغير شريك.

والآن، فلنستعرض طريقة القرآن في هداية النفس البشرية، وردها عمّا تنحرف إليه من شتى الضلالات.

---

(١) روى مسلم: «حدثني أبو غسان المسمعي ومحمد بن المثنى ومحمد بن بشّار بن عثمان (واللفظ لأبي غسان وابن المثنى) قالا: حدّثنا معاذ بن هشام: حدّثني أبي عن قتادة عن مطرف بن عبد الله بن الشخير عن عياض بن حمار المجاشعي، أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال ذات يوم في خطبته: ألا إن ربي أمرني أن أُعلّمكم ما جهلتم مما علّمني يومي هذا: كل مال نحلته عبدًا، حلال. وإني خلقت عبادي حُنفاء كلّهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاضالتهم عن دينهم، وحرّمت عليهم ما أحللت لهم، وامرتهم ان يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً...».

يوزع مجاناً ولا يباع

Marfat.com

طريقة القرآن

إذا تدبرنا القرآن الكريم، والسور وتعميق بصفة خاصة، التي تتناول موضوع العقيدة، نجد أن القرآن يستخدم وسائل شتى وأساليب متنوعة لتوضيح العقيدة السليمة وتصحيح الانحرافات التي يقع فيها الناس حين تستولي عليهم الجاهلية وتبعدهم عن الهدى الرباني، ثم لتثبيت هذه العقيدة وتعميق أثرها في النفس.

ومن هذه الوسائل التي يستخدمها القرآن:

١) إثارة الوجدان لتدبر آيات الله في الكون، وإزالة التبلُّد الذي يقع في حس الإنسان من المشاهد المكرورة. وذلك يشمل الحديث عن الكون بضخامته الهائلة ودقته المعجزة، وظاهرة الموت والحياة، وإجراء الرزق، وإجراء الأحداث، وقدرة الله التي لا تحد، وعلم الله الشامل للغيب، كل ذلك بطريقة فذة تجعل الإنسان يستقبل هذه الأُمور كلها كأنه يراها ويلاحظها لأول مرة، فينفعل بها وجدانه، ويستيقظ لحقيقة الأُلوهية.

٢) إثارة العقل ليتفكر في خلق الله، ليدرك أن لهذا الكون خالقًا، وأنه لا يمكن أن يكون له شريك في الخلق ولا في الرزق ولا في تدبير الأمر. وهذا يشمل كل الإشارات السابقة ولكن بطريق آخر غير إثارة الوجدان والانفعال، **هو طريق التفكر والتدبر المنطقي**. وإن كان يُلاحظ أن الطريقتين كثيرًا ما تقترنان معًا في آيات كثيرة من آيات القرآن، فيخاطب الوجدان ويخاطب العقل في آنٍ واحد.

٣) مواجهة الإنسان بحقيقة ما يدور في داخل نفسه وقت الشدة من اللجوء إلى الله ونسيان الشركاء، ومن الغفلة والنسيان والبغي في الأرض بغير الحق بمجرد زوال الأزمة ونجاته من الخطر. وهي حقيقة كثيرًا ما ينساها

Marfat.com

الإنسان فيذكِّره القرآن بها ليصحح سلوكه تجاه الله، ويستقيم على العقيدة السليمة.

٤) مناقشة الانحرافات كلها التي يقع فيها الجاهليون تارة بالدليل العقلي وتارة بالدليل الوجداني، ودحضها وبيان تفاهتها وعدم قيامها على أي أساس صحيح. ونلاحظ هنا كذلك أنه كثيرًا ما يقترن الدليل العقلي بالدليل الوجداني في مناقشة الانحرافات.

٥) التذكير الدائم بقدرة الله التي لا تُحَدّ، وعظمته وجلاله حتى يخشع القلب ويستسلم لله.

٦) التذكير الدائم بأن الله مع الإنسان يراه ويراقبه ثم يحاسبه يوم القيامة على ما عمل من خير أو شر، وإشعار الإنسان بعلم الله الشامل الذي لا يغيب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، ولا يخفى عليه من عمل الإنسان شيء حتى السرّ وما هو أخفى من السرّ.

٧) التذكير الدائم بالله سبحانه وتعالى في حالتي السراء والضراء. ففي السراء ينبغي على الإنسان أن يذكر الوهاب المُنعم فيشكره. وفي الضراء يصبر الإنسان لقضاء الله ويتوجه إليه ليكشف عنه الضر.

٨) إيراد القصص التي تثبّت الإيمان، بذكر الأنبياء وصبرهم على الأذى ونصر الله لهم في النهاية، والكفّار وعنادهم وتدمير الله عليهم في النهاية.

٩) رسم الصور المحببة للمؤمنين وصفاتهم وما يناهم من جزاء، والصور الكريهة المنفرة للكافرين وما يناهم من جزاء.

وفي الفصول القادمة نتحدّث عن هذه الوسائل بشيء من الشرح والبيان.

Marfat.com

القرآن والوجدان

قلنا إن الإنسان يتبلَّد حسّه على المشهد المكرور فينسى دلالته الحقيقية. ينسى إعجاز القدرة الربانية لأنه أَلِف مشهد الليل والنهار، ومشهد الشمس والقمر، والسحاب والمطر، والنبات المخضر.. ولم تعد هـذه المشاهد تهز وجدانه أو تلفت حسّه إلى وجود الخالق سبحانه وتعالى، وإلى أنه خالق عظيـم مدبر حكيـم متصف بالكمال متفرد بالخلق والإبداع.

والقرآن ـ بطريقته الجميلة المعجزة ـ يزيل تلك الغشاوة التي ترين على القلب وتجعل الحسّ يتبلَّد. ويعرض آيات الله في الكون في صورة حية ينفعل بها الوجدان كأنها جديدة يشهدها الإنسان لأول مرة! وحين ينفعل بها الوجدان ويتأثر، ويتحرك الخيال لتتبع المشهد المعروض، وتتحرك المشاعر بشتى الانفعالات، عندئذ يوجهه إلى أن وراء هذه المشاهد كلهـا قدرة الله المعجزة، وأن صانعها وبارئها هو الله.. فينبغي إذن عبادة ذلك الإله القادر، والتوجه إليه وحده بالعبادة دون سواه.

بهذه الطريقة الحيّة الجميلة يتحدث القرآن عن:

١) مشاهد الكون التي تصور ضخامة الكون ودقته المعجزة في ذات الوقت.

٢) ظاهرة الموت والحياة مـع عرض تفصيلي أحيانًا لمراحل الحياة النباتية والإنسانية.

٣) ظاهرة جريان الرزق على الناس والدواب كذلك.

٤) ظاهرة جريان الأحداث، سواء الأحداث الكونية أو الأحداث الواقعة في محيط الإنسان القريب.

٥) علـم الله الشامل للغيب.

وفي كل مرة يعقب بأن الله هو الصانع لهذا كله، فهو الجدير وحده بالعبادة وبالتوجه وبالدعاء وبالخشية وبالرجاء.

Marfat.com

والآن فلنعرض أمثلة لكل واحد من الموضوعات السابقة، وإن كان كثير منها يأتي مقترنًا بعضه ببعض في آيات القرآن.

١) آيات الله في الكون

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٧) وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨) ﴾

(سورة النحل: الآيات ١٠ ـ ١٨).

في هذه الآيات عرض لبعض آيات الله في الكون بطريقة تزيل عن الحسّ تبلّده إزاء المشهد المكرور، بأن تلفت هذا الإنسان صاحب الحس المتبلد إلى جوانب إما أنه نسيها، وإما أنه لم يلتفت إليها أصلاً. فحين يدركها أو يتذكرها تصبح المشاهد جديدة في حسّه، وينظر إليها برؤية جديدة غير التي كان يراها بها من قبل، فينفعل بها وجدانه وتتحرك عواطفه.

فالإنسان ذو الحسّ المتبلّد قد يرى الماء النازل من السماء فلا يتذكر أن هذا المطر هو الذي يتحوّل إلى عيون وينابيع وآبار وأنهار يشرب منها. أو هو من الجانب الآخر قد يشرب الماء الذي يجده أمامه ميسّرًا، وينسى أن هذا الماء لم يوجد في الأرض من تلقاء نفسه، بل أنزله الله له في صورة مطر، لا ينزل إلا بقدرة الله، وحسب القوانين والسنن التي أودعها الله في الكون، فأجرى بها السحاب وأنزل منه الماء. فالنص القرآني يوقظه إلى هاتين الحقيقتين في آن واحد: ﴿ هو الذي أنزل من

(١) إشارة إلى المراعي التي تأكل منها السائمة أي الدواب.

Marfat.com

السماء ماء لكم منه شراب ﴾ ، كمـا يلفته أيضًا إلى الشجر الثابت من هذا المـاء ، فلا يعود المطر النازل من السماء ظاهرة مكرورة مألوفة منقطعة في حسّه عن الله الذي أنزله من السماء ، إنمـا تصبح موصولة بقدرة الله ، فتحيا في النفس وتؤثر فيها ، بربطها بالله المنعـم الوهّاب .

ويستمر السياق يعرض أنواعًا من النبات الذي أشارت إليه الآية السابقة ، فيذكر الزرع بعمومه ، والزيتون والنخيل والأعناب ، ﴿ ومن كل الثمرات ﴾ .

وهذه الطريقة في ذكر بعض الأنواع بالتفصيل والإشارة العـامة إلى بقيتها تجعل الخيال يتحرك لتقصي ما لم يذكر بتفصيله بعد أن تتبع المذكور منه بالفعل ! وهكذا يشترك الخيال مع الوجدان في تصور المشهد ، ويعطي له حيوية جديدة فلا يعود هو المشهد المكرور المألوف الذي تبلّد عليه الحسّ !

ثم يُشير السياق إلى الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم . وكلها مشاهد مألوفـة مما يتبلد عليه الحس بالتكرار ، ولكن السياق يذكر أمرًا جديدًا يغيّـر وضعها في النفس ، ويجعلها كأنها تعرض لأوّل مرة . ذلك هو قوله تعالى :

﴿ وسخّر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم **مسخرات** بأمره ﴾

والنهار والشمس والقمر والنجوم لم تعد تلك الظواهر الكونية المعتادة التي ألفها الحس ففقدت دلالتها في النفس . إنما هي **كائنات مسخرة** بأمر الله . ولا شك أن هذا المعنى قـد غيّـر صورتها تمامًا عن الصورة المعهودة التي تبدو فيها هذه الظواهر وهذه الأجرام السماوية كأنها قائمة بذاتها ، مستقلة عن أي شيء بحركتها ! كلا ! إنها تقوم **بعمل معيّـن** . تقوم **بتكليف رباني** كلفها الله به . وإذن فحركتها الدائبة ليست حركة آلية يتصورها الحسّ المتبلّد ، إنمـا هي حركة حية ذات غـاية وهدف ، وكل جزء من هذه الحركة في ليل أو نهار هو قيام بجزء من التكليف الذي يبلغ غايته يوم يغير الله نظام هذا الكون كله في اليوم الموعود . وذلك فضلاً عن التذكير بنعمة الله في قوله

59977

Marfat.com

تعالى: ﴿ وسخر الليل والنهار... ﴾. والملحوظ أن جوّ السورة كلها هو جو تذكير الإنسان بنعمة الله عليه، لكي يتحرك وجدانه لشكر أنعم الله، بالتوجه إليه وحده دون سواه.

ثم يخطو السياق خطوة أُخرى بلفت الحسّ إلى اختلاف الألوان فيما خلقه الله على ظهر الآرض من كائنات: ﴿ وما ذرأ[1] لكم في الأرض مختلفًا ألوانه ﴾.

ونلحظ هنا كذلك نوعًا آخر من إثارة الخيال لتتبع المشهد. فالآية تقول ﴿ وما ذرأ في الأرض ﴾. «ما» بدون تخصيص شيء بعينه، نباتًا كان أو حيوانًا أو غيره.. فهنا ينطلق الخيال يتتبع كل ما ذرأ الله في الأرض من الأشياء المختلفة الألوان، فتصبح هذه الأشياء حية الوجدان، وتتخذ صورة أُخرى غير ما كانت عليه في عهد التبلُّد والنسيان.

ثم يقول السياق: ﴿ **وهو الذي سخر** البحر لتأكلوا منه لحمًا طريًا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها، وترى الفلك مواخر فيه **ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون** ﴾.

هل يمكن أن يمر الإنسان بالبحر بعد قراءة هذه الآية دون أن يتحرّك وجدانه؟ إن البحر هُنا كله حركة وحياة، مرتبط بحس الإنسان بصلات قوية، فمنه يستخرج اللحم الطري ليأكل، والحلية ليتزين، وفيه تمخر الفلك لتنقل البضائع والأرزاق.. إنه ليس ماء وأمواجًا فحسب. إنه عالم كامل مليء بالحركة والنشاط. وكله من فضل الله. أفلا نشكر الله على فضله؟

ثم يذكر السياق من المشاهد الكونية الجبال والأنهار والطرق والعلامات والنجوم بذات الأُسلوب الذي يلفت إليها الحسّ ويحرك الخيال ويذكّر في كل مرة بأنها نعمة من نعم الله على الإنسان..

وبعد هذا العرض الحي لتلك المشاهد، الذي يخرج الحسّ من تبلده، فيعود

---

(١) ذرأ أي خلق.

Marfat.com

يستعرض الأشياء كأنها جديدة عليه، وينفعل بها ويتحرك معها.. بعد هذا العرض كله يعقب بالحقيقة الكبرى التي يريد أن ينبّه الإنسان إليها:

﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق ﴾ ؟

ويجيء السؤال بعد إثارة الوجدان بآيات الله في الكون على هذا النحو، فيتلقى إجابته من داخل النفس مؤكدة لا لبس فيها:

لا يا رب! ليس الذي يخلق كالذي لا يخلق! سبحانك أنت الخلاق العظيم.

ويختتم السياق بما يزيد الوجدان إثارة ويزيد النفس ارتباطًا بالله:

﴿ وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها. إن الله لغفور رحيم ﴾.

والآن، وقد استعرضنا هذا النموذج مفصّلاً تستطيع على ضوئه إن تقرأ النماذج الأُخرى المشابهة في القرآن الكريم، نكتفي بإثبات نموذجين اثنين منها:

﴿ الٓمٓرٰ تِلْكَ اٰيٰتُ الْكِتٰبِ وَالَّذِيْٓ اُنْزِلَ اِلَيْكَ مِنْ رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلٰكِنَّ اَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُوْنَ ﴿١﴾ اَللّٰهُ الَّذِيْ رَفَعَ السَّمٰوٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوٰى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۭ كُلٌّ يَّجْرِيْ لِاَجَلٍ مُّسَمًّى ۭ يُدَبِّرُ الْاَمْرَ يُفَصِّلُ الْاٰيٰتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاۗءِ رَبِّكُمْ تُوْقِنُوْنَ ﴿٢﴾ وَهُوَ الَّذِيْ مَدَّ الْاَرْضَ وَجَعَلَ فِيْهَا رَوَاسِيَ وَاَنْهٰرًا ۭ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرٰتِ جَعَلَ فِيْهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي الَّيْلَ النَّهَارَ ۭ اِنَّ فِيْ ذٰلِكَ لَاٰيٰتٍ لِّقَوْمٍ يَّتَفَكَّرُوْنَ ﴿٣﴾ وَفِي الْاَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجٰوِرٰتٌ وَّجَنّٰتٌ مِّنْ اَعْنَابٍ وَّزَرْعٌ وَّنَخِيْلٌ صِنْوَانٌ وَّغَيْرُ صِنْوَانٍ يُّسْقٰى بِمَاۗءٍ وَّاحِدٍ ۣ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلٰي بَعْضٍ فِي الْاُكُلِ ۭ اِنَّ فِيْ ذٰلِكَ لَاٰيٰتٍ لِّقَوْمٍ يَّعْقِلُوْنَ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة الرعد: الآيات ١ ـ ٤).

﴿ فَسُبْحٰنَ اللّٰهِ حِيْنَ تُمْسُوْنَ وَحِيْنَ تُصْبِحُوْنَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ وَعَشِيًّا وَّحِيْنَ تُظْهِرُوْنَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِ الْاَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۭ وَكَذٰلِكَ تُخْرَجُوْنَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ اٰيٰتِهٖٓ اَنْ خَلَقَكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ اِذَآ اَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُوْنَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ اٰيٰتِهٖٓ اَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِّنْ اَنْفُسِكُمْ اَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوْٓا اِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَّوَدَّةً وَّرَحْمَةً ۭ اِنَّ فِيْ ذٰلِكَ لَاٰيٰتٍ لِّقَوْمٍ يَّتَفَكَّرُوْنَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ اٰيٰتِهٖ خَلْقُ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ وَاخْتِلَافُ اَلْسِنَتِكُمْ وَاَلْوَانِكُمْ ۭ اِنَّ فِيْ ذٰلِكَ لَاٰيٰتٍ لِّلْعٰلِمِيْنَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ اٰيٰتِهٖ مَنَامُكُمْ بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاۗؤُكُمْ مِّنْ فَضْلِهٖ ۭ اِنَّ فِيْ ذٰلِكَ لَاٰيٰتٍ لِّقَوْمٍ يَّسْمَعُوْنَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ اٰيٰتِهٖ يُرِيْكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَّطَمَعًا وَّيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاۗءِ مَاۗءً فَيُحْيٖ بِهِ الْاَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۭ اِنَّ فِيْ ذٰلِكَ لَاٰيٰتٍ لِّقَوْمٍ يَّعْقِلُوْنَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ اٰيٰتِهٖٓ اَنْ تَقُوْمَ السَّمَاۗءُ وَالْاَرْضُ بِاَمْرِهٖ ۭ ثُمَّ اِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً ۡ مِّنَ الْاَرْضِ ۡ اِذَآ اَنْتُمْ تَخْرُجُوْنَ ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة الروم: الآيات ١٧ ـ ٢٥).

Marfat.com

٢) ظاهرة الموت والحياة

يتحدَّث القرآن كثيرًا عن ظاهرة الموت والحياة ليهز الوجْدان بهذه الظاهرة المعجزة التي كثيرًا مـا يمر الإنسان بها دون أن يلتفت إليها، أو دون أن يعطيها حقها من الاهتمام، مع أنها جديرة حين يلتفت إليها أن تبعث في نفسه هـذا التساؤل: من الذي خلق الحياة في الخلية الحية سواءأكانت نباتية أم حيوانية أم إنسانية؟ أي قدرة معجزة هي التي جعلت تلك الخلية تتحرك وتنمو وتكبر وتتشكّل في أشكال شتى؟ من ذات نفسها؟ فلمـاذا إذن لاتتصرف الخلية الميتة على نفس الصورة؟! أليس هناك سرّ معجز في هذه الخلية الحية؟ أليس الخالق سبحانه هو الذي أودع فيها ذلك السر المعجز: سر الحياة؟!

ثم حين تموت تلك الخلية الحية، ويموت الكائن الحي: أين تذهب الحياة التي كانت سارية فيه؟ إننا نقول في بساطة إن ذلك الكائن قـد مات، سواءأكان نباتًا أم حيوانًا أم إنسانًا. ولكن هل الأمر بهذه البساطة في الحقيقة؟ أليست ذات القدرة المعجزة التي وهبت الحياة للكائن الحيّ هي التي استردتها منه وتركته ميتا بلا حياة؟!

إن العلـم يحدِّثنا عن بعض مظاهر الحياة والموت.

يقول لنا إن مظاهر الحياة في الكائن الحيّ أنه يتغذى، وأنه ينمو، وأنه يتحرك، وأنه يتكاثر.. ويقول لنا إن موت الكائن الحيّ هو وقف تلك الأعمـال كلها، فلا يعود يتغذى أو ينمو أو يتحرك أو يتكاثر..

نعم! ولكن العلـم لم يقل لنـا، ولا يستطيع حتى اللحظة أن يقول لنـا ما سر الحياة ذاتها، وما الذي يجعل الخلية الحية تتصرف على هذا النحو، وعلى هذا النحو بالذات؟

ثم إذا سألنا العلـم: لماذا تموت الخلية ولا تظل حية أبدًا؟! لم يستطع أن يجيبنا إلا بأن الخلية تهرم وتضعف ثم تموت! نعم! ولكن لمـاذا يحدث ذلك؟! لمـاذا لا تستمر

Marfat.com

في الحياة ؟ إن كل كائن حي يتشبث بالحياة ولا يحب أن يموت أبدًا . حتى الذبابة إذا أردت أن تقتلها تفر منك لتبعد عن الموت .. ولكن لماذا تموت كل الكائنات ؟ ، ترى لو كان أمر حياتها بيدها هل كانت تتخلى عن الحياة أبدًا ؟ كلا ! ولكنها تموت لأن الله قضى عليها بالموت ! وهذا هو السر الحقيقي وراء كل الأسباب الظاهرة للعين !

الموت والحياة إذن كلاهما من عند الله . كلاهما مشيئة ربانية وقَدَر رباني .

وهذا هو الذي يغيب عن الوجدان حيث يتبلد حسّ الإنسان على المشاهد المكرورة ، ويغيب عن العقل حين تنطمس بصيرة الإنسان لسبب من الأسباب الكثيرة التي ذكرناها من قبل ، فيقول كما يحكي القرآن عن الدهريين[1] :

﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ (سورة الجاثية : الآية ٢٤)

أو يقول إن « الطبيعة » هي التي تخلق الحياة وتسلبها من الكائن الحي كما يقول دارون !

ويجيء القرآن فيزيل تلك الغشاوة عن النفوس ، ويتحدَّث عن ظاهرة الموت والحياة حديثًا يهزّ الوجدان فيصحو من تبلُّده ، ويتيقظ لحقيقة الأُلوهية التي يرجع إليها الموت والحياة :

١) ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝٢ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤ ﴾ (سورة الملك : ١ ـ ٤) .

فالله الذي بيده الملك ، والذي هو على كل شيء قدير ، هو الذي خلق الموت والحياة . وما يستطيع غيره سبحانه أن يخلق الموت والحياة ، فهما ـ بأسرارهما المعجزة ـ لا يقدر عليهما إلا من كان بيده ملك كل شيء ، وكانت له القدرة التي لا يحدها شيء ، ولا يعجزها شيء !

وهذا الإله القادر ـ سبحانه ـ الذي خلق الموت والحياة بقدرته ، قد

---

(١) أطلق عليهم اسم الدهريين لأنهم قالوا : ﴿ وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ فنسبوا الموت للدهر بدلاً من الله . كما أنهم أنكروا أن الله يبعث الموتى .

Marfat.com

خلقهما لحكمة: ﴿ ليبلوكم أيكم عملاً ﴾ فاقتضت مشيئته أن يعيش الإنسان فترة معيّنة من الزمن على هذه الأرض، يعمل فيها وينشط ويتحرك ثم يموت، ليبعث مرة أُخرى ويحاسب على أعمـاله. وكذلك قضى ـ لحكمة يريدها ـ أن تموت الكائنات الحية كلها بعد فترة معيَّنة من الحياة، هو الذي يقدرها سبحانه لكل واحد من الأحياء، التي تبلغ ملايين الملايين من المخلوقات منذ أنشأ الله الحياة على الأرض، إلى أن تقوم الساعة في اليوم الموعود..

والسياق القرآني يلفت النظر إلى ظاهرة الحياة والموت في وسط الحديث عن آيات القدرة في الكون، ليوقظ الحسّ المتبلِّد إلى أن هـذه الظاهرة من الضخامة والإعجاز بحيث تقترن بآيات الخلق المعجزة التي لا يقدر عليها إلا الله، فمن قبلها أشار إلى أن الله بيده الملك وأنه على كل شيء قدير، ومن بعدها يعود إلى ذكر الخلق: ﴿ الذي خلق سبع سموات طباقاً ﴾ ثـم حين يقول: ﴿ ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ﴾ فهو يدعو الإنسان إلى النظر في الكون الواسع، يتملاه بخياله، ويتأمل فيه بفكره، ليرى: هل هناك اضطراب أو خلل أو نقص في هذا الخلق الذي خلقه الله؟: ﴿ فارجع البصر هل ترى من فطور ﴾؟

وحين يتملى الإنسان ببصره وخياله وفكره هـذا الكون الواسع وآيات القدرة فيه، ينفعل وجدانه بعظمة الله، وقدرته المعجزة، فإذا السياق القرآني يُطالبه بأن يرجع البصر كرةً أُخرى، ليبحث عن النقص أو الخلل في خلق الله! فهل يستطيع شيئًا من ذلك؟ أم يعود البصر عاجزًا حسيرًا لا يقدر على هذه المهمة: ﴿ ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير ﴾!. وعندئذ يكون الوجدان قد بلغ أقصى انفعاله، ووصل إلى غاية تأثره، فيقر إقراراً لا مهرب له منه بعظمة الله وجلاله، وقدرته التي لا تحدها حدود.

Marfat.com

٢) ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ (سورة المؤمنون: الآيات ١٧ ـ ١٩).

٣) ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾ ﴾ (سورة الزمر: الآية ٢١).

٣) الرزق

من أشد الأُمور التي تربط القلب المؤمن بالله، بينما يغفل عنها الحسّ المتبلّد، أمر الرزق الذي يجريه الله على الإنسان من السماء والأرض.

فالمؤمن يشعر شعورًا دائماً بفضل الله عليه ورحمته، لأن الرزق الذي يفيضه الله على الإنسان دائم لا ينقطع، ولو انقطع لحظة واحدة لما أمكن للإنسان أن يعيش.

وقد نتصور أحيانًا أن الرزق محصور في الطعام والشراب، أو الملبس والمسكن، أو المال الذي نشتري به الأشياء. ولكن الرزق في الحقيقة أوسع من هذا بكثير، لا يمكن للإنسان أن يحصيه: ﴿ وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ (سورة النحل: الآية ١٨).

فهل خطر ببالك أن الهواء الذي تتنفسه مكوَّن من عناصر رتبت ترتيبًا ربانيًا بنسب معيّنة لتجعل الحياة صالحة على ظهر الأرض، وأنه لو قَلَّتْ نسبة الأُكسجين في الهواء لتعذرت الحياة، ولو زادت لاشتعل كل ما على الأرض؟!

وهل خطر ببالك أن الجاذبية القائمة بين الأرض والشمس من جهة، وبين الأرض والقمر من جهة أُخرى قد قدرها الله سبحانه بحسبان دقيق: ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ ﴾ (سورة الرحمن: الآية ٥) بحيث إنه لو كان جذب الشمس

Marfat.com

للأرض أكبر من قدره الحالي لاقتربت من الشمس أكثر، وصارت الحرارة عليها لا تُطاق، فماتت كل الأحياء، ولو كان جذبها للأرض أقل لابتعدت عن الشمس أكثر، فصارت البرودة عليها لا تُطاق، ولماتت كل الأحياء؟! وأنه لو اقترب القمر إلى الأرض فزادت الجاذبية بينه وبينها لطغى المـاء ـ وقت المد ـ فأغرق كل سطح الأرض وأهلك كل الأحياء؟!

وهل عرفت أن دورة الليل والنهار لازمة لحياة الأحياء، ولولاها ما استقامت الحياة ولا ترعرعت الأرض، لأن الكائنات الحية كلها تحتاج إلى وقت تسكن فيه ووقت من نوع آخر تنشط فيه؟

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ (سورة القَصَص: الآيات ٧١ ـ ٧٣).

ذلك ـ وغيره ـ من ألوان الرزق التي ننساها أحيانًا ونحن نعـدد الأرزاق التي أفاضها الله على الإنسان. وهي ـ إلى جانب أنواع الرزق الأُخرى ـ نعم ربانية يذكرها القلب المؤمن بالحمد والشكر. ولكن الحسّ المتبلِّد يمر عليها بغير التفات، أو يجنح به الغرور أحيانًا أن يقول كمـا يروي القرآن عن قارون: ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ ! (سورة القَصَص: الآية ٧٨) أي حصلته بقدرتي وجهدي لا من عند الله!

لذلك يعرض القرآن موضوع الرزق بطريقة تهزّ الوجدان المتبلِّد ليتيقّظ إلى الحقيقة، وهي أن الله هو الرزّاق ذو القوة المتين، وأن الأرزاق كلها من عند الله، وأن الإنسان مهمـا بذل من جهد فهو لا ينشئها في الحقيقة، إنمـا يعمل فيها بسُنَّة الله ومشيئته، ولكن المنشىء هو الله:

Marfat.com

١) ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ (١) تَفَكَّهُونَ (٢) ﴿٦٥﴾
إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٣) ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾
لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا (٤) فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾
نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ (٥) ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾ (سورة الواقعة : الآيات ٦٣ ـ ٧٤) .

إن الإنسان يحرث الأرض ويلقي البذور فيها فيخيّل إليه إنه هو الذي زرع ؛ أي أنه هو الذي أنبت الزرع ؛ فهل حقيقة هو الذي يصنع ذلك ؟ وهل هناك قوة في الوجود كله ـ إلا القدرة الربانية المعجزة ـ تستطيع أن تحرك البذرة للنمو ، وتخرج منها ذلك الزرع المختلف الألوان والأشكال والطعوم ؟ ترى لو أن الله لم يودع هذه البذرة سر الحياة ، هل كان أهل الأرض جميعًا يستطيعون أن يحركوها من مكمنها لتنمو وتثمر ؟! من أجل ذلك يقول القرآن : ﴿ أأنتم تزرعونه الزارعون ﴾ ؟ ثم يلفت الحس إلى جانب آخر من المسألة يغفل عنه الإنسان حين يتبلّد حسّه على المشهد المكرور ، فينسى ما فيه من إعجاز الله القدير . إن الإنسان تعود أن يرى الزرع ناميًا ينتقل من مرحلة إلى مرحلة حتى تطلع الثمرة ، فيظن ـ في غفلته ـ أن الأُمور تسير هكذا من تلقاء ذاتها . وأنه لا بُدَّ حين يضع البذرة أن تنمو حتى تخرج له الثمرة ، وينسى أن الله هو الذي يخرجها له . من أجل ذلك يقول له القرآن :

﴿ لو نشاء لجعلناه حطاما ، فظلتم تفكهون . انا لمغرمون . بل نحن محرومون ﴾ ! فلو شاء الله لم ينبته أصلاً . ولو شاء كذلك أنبته ثم جعله حطامًا دون أن يثمر ! ولو حدث ذلك لظللتم تقلبون القول بينكم ، تقولون : غرمنا جهدنا ومالنا ولم يثمر الزرع . أو تقولون : وقع علينا الحرمان !

والإنسان يرى الماء نازلاً من السماء ولكنه يغفل ـ حين يتبلّد حسّه ـ عن أن

---

(١) أي فظللتم .
(٢) أي تقبلون من حيرتكم وحسرتكم .
(٣) أي غارمون .
(٤) أي شديد الملوحة .
(٥) أي المسافرين .

Marfat.com

الله هو الذي أنزله، فيتوهم أنه ينزل هكذا من تلقاء نفسه: أو قد يصيبه الغرور كما وقع من الإنسان المعاصر الذي يعيش في الجاهلية الحديثة المسيطرة على الناس في أوربا رغم كل ما عندهم من التقدم المادي، فيظن أنه هو الذي ينزل المطر من السماء، لأنه استطاع أحيانًا أن يلقي مواد معيّنة بالطائرات فوق السحب فيسقط المطر؟

يغفل هؤلاء وهؤلاء عن الحقيقة، وهي أن الله سبحانه وتعالى هو الذي ينزل المطر في الحقيقة، بمشيئته وقدره، وبالسنّة التي أودعها في الكون لتؤدي إلى تحقيق مشيئة الله وقدره. فإذا كان بخار الماء يتثاقل حين يبرد السحاب في طبقات الجوّ العُلْيا، أو حين يصطدم السحاب بجبل مرتفع، فلا يعود الهواء قادرًا على حمله، فينزل في صورة مطر.. فمن الذي صنع ذلك كله؟ مَنِ الذي جعل هذا من طبيعة بخار الماء؟ ترى لو أن الله لم يودع بخار الماء هذه الخصائص كان المطر ينزل من تلقاء نفسه حين يتكاثف؟! وإذا كان القاء بعض المواد على السحاب بالطائرات يؤدي ذات الهدف فيجعل بخار الماء يبرد فيتكاثف فيثقل فينزل في الصورة التي يسمونها «المطر الصناعي»! فهل كانت طائرات الأرض كلها، والبشر جميعًا يقدرون على شيء من ذلك لو لم يسخر الله الماء لينزل من السماء إلى الأرض بحسب سنن معيَّنة أودعها فيه[1]؟!

ومرة أُخرى يلفت القرآن الحسّ إلى جانب آخر من المسألة. فإن المطر ينزل في صورة ماء عذب سائغ للشراب، فيظن الحسّ الغافل أنه ينزل على هذه الصورة من تلقاء نفسه! فيذكره القرآن بالحقيقة. إن الله هو الذي أنزله في صورته العذبة تلك

---

(١) عن زيد بن خالد الجهني أنه قال: صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلّم صلاة الصبح بالحديبية على أثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «قال أصبح من عبادي مؤمن وكافر. فأمّا من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي وكافر بالكواكب، وأمّا من قال: بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب». رواه البخاري.

Marfat.com

رحمة منه بخلقه، وإنه لو شاء لجعله مالحًا شديد الملوحة لا يصلح للشرب ولا لتنمية النبات. أفلا يستحق الله الشكر على نعمته تلك؟

والإنسان يوقد النار وينسى قدرة الخالق من ورائها، حين يراها ميسرة بين يديه يشعلها حين يشاء. فمن أنشأ الشجرة التي تتوهَّج منها النار؟ أليس هو الله سبحانه وتعالى الخالق المنعم الوهّاب؟ وما يصدق على الشجرة يصدق على غيرها من ألوان الوقود الموجود اليوم.. كله من عند الله.

ثم يُذكِّر القرآن الإنسان بجانب آخر من المسألة: إن الله قد جعل هذه النار التي يوقدها الإنسان في الأرض تذكرة تذكِّره بالنار الكُبرى التي تنتظره في الآخرة لو عصى الله، في ذات الوقت التي جعلها متاعًا للمسافرين المحتاجين للدفء ولما ينضجون عليه الطعام.

وينتهي السياق حين يهز الوجدان بذلك العرض كله بدعوة الإنسان ـ وهو في حالة تأثره وانفعاله الوجداني ـ أن يسبِّح باسم ربّه العظيم، الذي أفاض عليه كل تلك الأرزاق!

٢) ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ (٣١) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤) ﴾
(سورة إبراهيم: الآيات ٣١ ـ ٣٤).

٣) ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ (٦٦) وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٦٧) وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٦٩) ﴾ (سورة النحل: الآيات ٦٦ ـ ٦٩).

---

(٢) أي صداقات تحميهم من حساب الله وعذابه.

Marfat.com

٤) الأحداث الجارية

تجري الأحداث حول الإنسان وفي خاصة نفسه من مولده إلى مماته. بعضها أحداث كونية كالليل والنهار وتعاقبهما المستمر، وطلوع الشمس وغروبها، وطلوع القمر وتدرج أوجهه من أول الشهر حتى يكون بدرًا ثم يتضاءل حتى يختفي، والسحاب والمطر والبرق والرعد وتعاقب الفصول.. الخ. وبعضها أحداث في محيط البشر من ميلاد وموت، وصحة وضعف، وطفولة وشباب وكهولة وشيخوخة، وغنى وفقر، وعز وذل.. الخ.

تمر هذه الأحداث على المؤمن فيجد لنفسه فيها عبرة، يعلم أن من ورائها تدبيرًا حكيمًا لإله حكيم، هو الذي يجري الأحداث بعلمه وحكمته وقدرته، وهو الذي يدبر أمر الكون كله، فلا يحدث في هذا الكون الهائل العريض إلا ما يريده الله، ولا يتم أمر من أُمور الكون إلا على الصورة التي يريدها الله.

أمَّا الغافل المتبلِّد الحسّ فيمر بهذه الأحداث، سواء منه الأحداث الكونية أو الأحداث التي تقع في محيط البشر، دون أن يتنبه من غفلته، ودون أن يتيقظ لما فيها من دلالة على وجود الله، وتفرّده بالمُلْك في هذا الكون، وتفرّده بتدبير الأمر كله، ومن ثم تمر به الأحداث وهو سادر في غفلته لا يفيق!

ويجيء القرآن فيهزّه من غفلته هزًّا ليطلع على الحقيقة الكامنة وراء الأحداث! وكما يُعالج القرآن آيات الله في الكون، وظاهرة الموت والحياة، وجريان الرزق، فيجلّيها جديدة حيّة كأنما يتلقاها الإنسان لأول مرة، كذلك يُعالج أمر الأحداث الجارية بما يزيل عن النفْس غشاوتها، ويزيل عن المشاعر تبلُّدها، فينفعل الوجدان ويتأثر، ويتيقّظ القلب ويستشعر.

١) ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ (سورة البقرة: الآية ٦٤).

يوزع مجانا ولا يباع

Marfat.com

في هذه الآية الواحدة يلفت القرآن الحسّ البشري إلى مجموعة كبيرة من الأحداث الكونية التي يمر بهـا الإنسان الغافل دون تنبه إلى دلالتها، بحكم الالف والعـادة. ولكن القرآن يوقظ هذا الحسّ المتبلّد ليرى هذه الآيات الكونية ويدرك أنها لا يمكن أن تحدث من تلقاء نفسها، ولكن وراءها تدبيرًا وحكمة.

وإذا تدبرنا الآية نجد أن القرآن يصل إلى الغاية المقصودة ـ وهي ايقاظ الحسّ المتبلّد ـ بطريقتين في آنٍ واحد:

الأُولى: هي حشد عدد كبير من الأحداث الجارية في معرض واحد. فهناك السماوات والأرض. وهناك اختلاف الليل والنهار (بمعنى تعاقبهما المستمر وبمعنى اختلاف طولهما على مدار الفصول)، وهناك جريان السفن في البحر، وهناك المطر النازل من السماء، والحياة النباتية في الأرض، والدواب المنبثة في أرجائها، وهناك تصريف الرياح، وهناك جريان السحاب المعلق بين السماء والأرض... وهذا الحشد ذاته يوقظ الحس. فقد يتبلّد هذا الحس فلا يلتفت لتلك الأحداث الجارية وهي فرادى، كل منها يقع على حدة في وقت منفصل عن الآخر، ولكنها حين تحشد هكذا وتعرض بهذا التوالي وبذلك التجمع فإن الحسّ لا بُدَّ أن يستيقظ، وهو يتتبعها بخياله واحـدة إثر الأُخرى فلا يجد فرصة يغفل فيها أو يستنيـم، وهي تلاحقه بهذه السرعة، لا يكاد ينتهي من تتبع واحدة حتى تكون الأُخرى قد لحقته!

والثانية: هي ربط الوجدان بهذه الأحداث عن طريق لفت الحسّ إلى الحركة الدائبة في هـذا الكون. فالمشهد الثابت الذي لا يتحرّك قـد يسهل على الحس أن يتعوّد عليه فيتبلد ولا يعود المشهد يثيره. أمَّا الحركة المستمرة فلا يمكن للحس أن يتبلَّد إزاءهـا، ولا بُدَّ أن يلتفت ويتيقظ.

فالآية تبدأ بخلق السماوات والأرض، وهو حدث قـديم لم يشهده الإنسان ولكنه يرى آثاره ماثلة أمامه. ولكن السياق القرآني لا يدع صورة الخلق ساكنة أمام الحس بل يحرك الصورة بتحريك مفرداتها. فالليل والنهار يدوران ويختلف طولهما في أثناء

Marfat.com

تعاقبهما المستمر. والفلك تجري في البحر بما ينفع الناس، والماء النازل من السماء يتسم بالحركة كذلك، وهي حركة النزول نحو الأرض. ولكن الحركة لا تنتهي هنا. فمن هذا المطر النازل يخرج النبات الحي من الأرض التي كانت مجدبة من قبل، والتعبير القرآني يقول:

﴿ فأحيا به الأرض موتها ﴾ فيصوِّر الأرض كانت ميتة فتحركت بالحياة بعد نزول المطر (كما يقول في سورة الحج: ﴿ وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج﴾) ولكن الحركة لا تنتهي هنا كذلك. بل تستمر لتصور الدواب جاءت تسعى تأكل النبات الذي أخرجته الأرض بالمطر، والتعبير القرآني يقول: ﴿ وبث فيها من كل دابة ﴾ والبث حركة في جميع الاتجاهات في وقت واحد. ثم يجيء ذكر الرياح وهي متحركة بطبيعة الحال، فإنها لا تسمى رياحاً إلا إذا تحركت حركة شديدة ملموسة، وأخيراً يذكر السحاب متحركاً كذلك (مسخراً) بين السماء والأرض. وهكذا تشمل الحركة كل الكائنات، ويتملاها الحس في حركتها الدائبة فينفعل بها ويتحرك معها.

ولا ننس كذلك أن التعبير القرآني يلفت الحس البشري في أثناء عرض هذه الحركة المستمرة إلى الله سبحانه وتعالى، الذي تحرك قدرته كل هذه الأحداث: ﴿ وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ﴾ وهكذا يذكر لفظ الجلالة الصريح مرة ويعود الضمير عليه مرتين متواليتين بعد قوله «فأحيا» وقوله «وبث» ثم يلفت إليه الحس مرتين أُخريين في قوله تعالى: ﴿ وتصريف الرياح ﴾ وقوله: ﴿ والسحاب المسخر ﴾ إذ الإشارة واضحة إلى أن الذي يصرف الرياح هو الله، والذي يسخر السحاب هو الله.

وبهذه الوسائل كلها يوقظ القرآن وجدان البشر إلى الأحداث الجارية في بنية الكون وفي حياة الناس.

٢) ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ

Marfat.com

قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ (سورة آل عمران : الآيتان ٢٦ ـ ٢٧).

٣) ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ ﴾ (سورة الروم : الآيات ٤٨ ـ ٥٤).

٥) علـم الله الشامل للغيب

يتشوق الإنسان دائماً إلى معرفة الغيب.

يحب أن يعرف ماذا يحدث له في الغد القريب والغد البعيد.

وسواء كان هذا الغيب أملاً منشودًا يسعى الإنسان لتحقيقه، أو كـان شيئًا مؤلماً يحب الإنسان أن ينجو منه، أو خيرًا يحب أن يستزيد منه، أو شرًّا يحب أن يتخلص منه.. فهو دائم التطلع إلى معرفة هـذا الغيب بأي شكل من الأشكال..

ومع ذلك فإنه لا يستطيع..

يلجأ أحيانًا إلى تفسير ما يرى من رؤى وأحلام، لعلها تكشف له جانبًا من الغيب المجهول..

ويلجأ أحيانًا إلى أحاسيسه الباطنية يحاول أن يستشف المجهول..

وقد يلجأ ـ إذا لم يعصمه دينه وإيمانه ـ إلى العرّافين والعرّافات يحاول أن يستخلص من أفواههم شيئًا عن هذا الغيب.. ولكنه مهمـا فعل يعلـم أنه عاجز عن

(١) أى حائرين يائسين قانطين.

Marfat.com

معرفة الغيب، وأن كل محاولاته ظنون وحدس قد يخطىء وقد يصيب..

عندئذ يلتفت حسّه إلى القدرة القادرة من وراء ذلك الغيب. قدرة الله الذي يعرف الغيب كله لأنه سبحانه هو العليم بكل ما في السماوات وما في الأرض، وكل ما حدث في الماضي، ويحدث في الحاضر والمستقبل، ولأنه سبحانه هو منشىء الأحداث ومجريها في الماضي والحاضر والمستقبل، فهي معلومة له بكل تفصيلاتها، حاضرة عنده سبحانه لا تغيب.

ولكن الإنسان قد يتبلد وينسى..

عندئذ يحركه القرآن من تبلده، ويذكره من غفلته، بطريقة تهز الوجدان هزًا وتجعله لا يستطيع أن يفلت من التأثر:

١) ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾

(سورة الرعد: الآيات ٨ـ١١).

تدبر هذه الآية الأُولى في السياق:

هل تصورت أبعادها ؟!

راجع نفسك جيدًا وتأكد من الأمر..

كلا ! إنك لم تتصور كل أبعادها، وأغلب الظن أنك لن تستطيع !

هل تصورت ﴿ ما تحمل كل أنثى ﴾ ؟

إن السياق لم يحدد أي الإناث بالذات. فالتعبير يشمل إناث الإنسان، وإناث الحيوان، وإناث الطير، وإناث الأسماك في البحر، وإناث الحشرات والهوام... ومع ذلك فلنفترض أن السياق اقتصر على إناث الإنسان فحسب.. فهل تصورت الأمر ؟

Marfat.com

هل تصورت « كم » أُنثى من إناث الإنسان على ظهر الأرض ؟!

هل تستطيع أن تحصيهن عدًّا ؟!

وهب أنك استطعت باستخدام كل الوسائل المتاحة لك أن تحصي كم أُنثى هناك في كل قارات الأرض، وسهولها وجبالها ووديانها وغاباتها وكهوفها ومغاراتها وقصورها وبيوتها وأكواخها وخيامها وجزرها النائية ومدنها المعمورة... فما الذي أحصيته؟ إنه عدد الاناث الأحياء اليوم في جيلك هذا الذي تعيش فيه! فكيف بكل الإناث اللواتي عشن منذ بدء الخليقة حتى ذلك الجيل؟ وكيف بكل الإناث اللواتي سيعشن من بعد إلى زمن لا يعلمه إلا الله ؟!

هل يقدر على إحصائهن إلا الله ؟!

وهذه مرحلة واحدة من هذا الأمر الهائل الذي تصورت لأول وهلة أنك أحطت بأبعاده !

فلننتقل - بخيالنا - إلى مرحلة تالية.

﴿ الله يعلم ما تحمل كل أُنثى ﴾.

هذه « كل أُنثى » تحمل في بطنها جنينًا.. فهل تتبّعت الأمر بخيالك لتعلم أي شيء هو الذي احاط به علم الله ؟!

هل تتبّعت بخيالك «أنواع المعلومات» التي يعلمها الله عن كل جنين من هذه الأجنَّة ؟!

ذكر أمْ أُنثى ؟!

ما لونه؟ أبيض أم أسود أم أحمر أم أصفر ...؟

ما شكله؟ ما قسماته؟ كيف أنفه؟ كيف فمه؟ كيف عيناه؟ ما لون عينيه؟ ما لون شعره؟ جميل الطلعة أم غير جميل؟ ما طوله؟ ما حجمه؟

في أي مرحلة هو من مراحل نموه: نطفة؟ أم علقة؟ أم مضغة؟ أم..؟ أم ...؟

هل انتهت «أنواع المعلومات» عند هذا الحد؟

Marfat.com

كلا ! لم تنته بعد...

قد يقف خيالك هنا عاجزًا عن تتبُّع هذه المعلومات وإحصائها بالنسبة لكل جنين تحمله كل أُنثى. ومع ذلك فإن علـم الله الشامل، الذي يشملها جميعًا، لا يتوقف عند هذا الحد.. بل يشمل «معلومات» أُخرى قـد لا تلتفت أنت إليها لأول وهلة.

ما اسم هذا الجنين حين يولد؟ أيْ ما اسم كل جنين تحمله كل أُنثى منذ بدء الخليقة إلى قيام الساعة؟

ما عمره الذي سيقضيه في الأرض؟ هل سيولد حيًّا أم ميتًا؟ وإن كان حيًّا فكم يعيش:

﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ (سورة الحج: الآية ٥).

ما درجة ذكائه؟

ما خصاله التي يحملها؟ طيّب أم شرير؟ شُجاع أم جبان؟ كريم أم بخيل؟

ما قدره المقدور له في الأرض؟ ما الأحداث التي تجري في حياته؟

ثم.. أخيرًا.. أشقيّ هو أم سعيد.. أيْ من أصحاب النـار أم من أصحاب النعيـم[1]؟

إن هذه «بعض» المعلومات التي يشملها علـم الله الشامل بالنسبة **لكل** جنين تحمله **كل** أُنثى من بـدء الخليقة إلى قيـام الساعة، وغيرها وغيرها كثير لا يحصيه إلا الله..

فهل تصورت الآن الأمر على حقيقته؟!

---

(١) عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: حدَّثنا رسول الله صلى الله عليه وسلّـم وهو الصادق الصدوق: «إن أحدكم يجمع في بطن أُمه أربعين يومًا ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك ثم يرسل الله الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمـات، يكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد...» رواه مسلـم.

Marfat.com

هل تصورت أبعاد هذه الحقيقة التي تذكرها الآية:

﴿ الله يعلم ما تحمل كل أُنثى ﴾..؟

﴿ وما تغيض[1] الأرحام وما تزداد ﴾.

يعلم ازديادها بالحمل وغيضها بتفريغ ما تحمل.

وعُدْ بخيالك مرةً أُخرى فتتبَّع كل أُنثى.. وحاول أن تتصوّر ـ مجرد تصوُّر ـ ما يحيط به علم الله الشامل من حملها وولادتها، وكل مرحلة من مراحل الحمل شهرًا بعد شهر حتى تضع حملها، وتكرار ذلك مع كل أُنثى على حدة، وتكراره على نطاق الأرض كلها وما تحتويه من إناث!

﴿ وكل شيء عنده بمقدار ﴾.

مرة أُخرى هل تصورت أبعاد الأمر؟!

«كل شيء» عنده بمقدار..

لقد تعب خيالك وكدَّ ليتتبَّع شيئًا واحدًا من كل شيء.. هو «ما تحمل كل أُنثى».. فكيف إذا أراد خيالك أن يتتبع «كل شيء»؟!

هل تظن أنك تستطيع؟ أنت والبشر جميعًا في كل الأرض؟

ومع ذلك فعلم الله الشامل يعلم «كل شيء».. وليس هذا فحسب، بل إنه يخلق «كل شيء» كذلك بمقدار.

وسواء كان معنى «المقدار» هنا هو القَدَر الذي يخلق الله به كل شيء، أو هو «القدْر» المحدد لكل شيء، فإن الخيال البشري يعجز عن مجرد التصور فضلاً عن الإحاطة فضلاً عن الإحصاء!

﴿ عالم الغيب والشهادة[2] الكبير المتعال ﴾.

وقد رأيت طرفًا واحدًا من علم الله للغيب، لم يستطع خيالك تتبعه ولا إحصاءه، فكيف بالغيب كله والشهادة؟

---

(١) أي تنقص وتنكمش.

(٢) أي الشيء المشهود.

Marfat.com

والناس حين يسرون القول يتصورون في غفلتهم أحيانًا أنهم يسرونه على الله ! وحين يستخفون عن أعين الناس بأعمالهم أو سرائرهم يظنون أنهم يستخفون كذلك على الله !

ولكن الله الذي يشمل علمه كل الغيب، يستوي عنده المُسِر بالقول والجاهر به، والمستخفي والمستعلن على السواء.

أي أن هناك ملائكة تتعقَّب كل أعماله وتسجلها عليه.

﴿ من أمر الله ﴾ أي بأمر الله.

فأين يغيب شيء واحد من أعمال الإنسان عن علم الله ؟!

٢) ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ (سورة الأنعام : الآية ٥٩).

٣) ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۖ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ ۖ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ (سورة لقمان : الآية ٣٤).

Marfat.com

الدّليل العَقْلي

كمـا يخاطب القرآن الوجدان البشري ليوقظه إلى حقيقة الأُلوهية، فإنه كذلك يخاطب العقل البشري ليفكر ويتدبر، وينظر في آيات الله في الكون، ليعرف دلالتها.

هل يمكن أن يوجد هذا الكون الهائل بغير خالق؟

هل يمكن أن يدبر شؤون هذا الكون الضخم إلا إله قادر عليـم حكيـم؟

هل يمكن أن يكون لهذا الإله شريك في الملك أو شريك في التدبير؟

هل آيات القدرة المبثوثة في تضاعيف الكون تشير بأن هذا الإله يمكن أن يعجز عن أمر من أُمور الخلق أو التدبير أو الرزق أو الإحياء أو الإماتة أو البعث أو الجزاء؟..

وتلك كلها أُمور سبق للقرآن أن خاطب فيها الوجدان، ولكن القرآن يخاطب الإنسان كله: وجدانه وعقله. فكما عرض هـذه الأُمور كلها على الوجدان عرضًا مؤثرًا ينتهي باقتناع الوجدان وإدراكه لحقيقة الأُلوهية، فكذلك يعرضها على العقل، يناقشه، ويوقظه للتفكير المنطقي السليـم، الذي يؤدي في النهاية إلى الغـاية ذاتها، وهي إدراك حقيقة الأُلوهية، ومن ثم وجوب الإيمـان بالله الواحد دون شريك.

والآيات التي تخاطب العقل وتدعوه إلى التأمّل والتدبر كثيرة في القرآن نجتزىء بذكر نماذج منها.

(١)

﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (سورة الذاريات: الآيتان ٢٠ ـ ٢١).

ولو تأمَّل الإنسان بعقله الآيات المبثوثة في الأرض، والآيات المبثوثة في النفْس لأصابه العجب والذهول لكل آية من هذه الآيات المعجزة التي تنـمّ كل منها على وجود الخالق سبحانه، وعلى قدرته المعجزة التي لا تقف عند حد.

Marfat.com

فالأرض جرمٌ صغير بالنسبة للأجرام السماوية الضخمة التي يزخر بها هذا الكون، لا تعدو أن تكون كحبّة الرمل بالنسبة للصحراء الواسعة التي لا يأتي البصر على آخرهـا. ومع ذلك ففيها ـ على ضآلتها ـ من آيات الله المعجزة ما يعجز الخيال عن تتبّعه فضلاً عن إحصائه، وفيها من الخصائص التي أودعها الله بهـا ما تذهل له العقول.

فقد هيَّأها الله ـ وحدها فيمـا نعلـم حتى اليوم من الأجرام الأُخرى ـ بخاصية الحياة، وجعل لهـا من الظروف ما يجعل الحياة عليها ممكنة الوجود والاستمرار. فكتلتها محسوبة بحساب رباني دقيق يجعل جاذبيتها تحتفظ حولهـا بغلاف جوي لا يتبدد، وفي هذا الغلاف يوجد الأُكسجين المطلوب لتنفُّس الكائنات الحيّة، وبالقدْر المطلوب لتنفُّس هـذه الكائنات بلا زيادة فيه ولا نقصان، لأن الزيادة والنقصان كلتاهما ضارة بهذه الأحياء! وحرارتها محسوبة بذلك الحساب الرباني الدقيق، بالصورة التي تحتملها الكائنات الحية ولا تموت من شدَّتها ولا من ضعفها! والأقوات فيها محسوبة بحيث تفي بحاجة تلك الكائنات من الغذاء مع توازن دقيق بين هـذه الكائنات وبين أقواتها:

﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴿١٩﴾ ﴾ (سورة الحجر: الآية ١٩). ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ﴾ (سورة فصّلت: الآية ١٠).

وعلى ذكر التوازن في الأرض بين الكائنات الحيّة والتوازن في الأقوات، فقد ذكرت الأنباء أن الشيوعيين في الصين سوّلتْ لهم أنفسهم الشرّيرة أن يقتلوا جميع العصافير الموجودة في الصين بحجَّة أنهـا تأكل عشرة في المائة من مجموع الغلال التي يزرعونها! فجنَّدُوا في كلّ القُرى والمُدن فرقًا تتناوب الضرب على الدفوف وقِطَع الصفيح ليل نهار لمدة ثلاثة أيام، فكلمـا أرادت العصافير أن تأوي إلى عشوشها لتنام أو تستريح أزعجها الصوت فعادت إلى الطيران، حتى هلكت جميع العصافير

Marfat.com

من الجوع والعطش والتعب وعدم النوم. وفرح الشريرون بأنهم قضوا على تلك المخلوقات الصغيرة اللطيفة، واطمأنوا أن المحصول سيصل إليهم كاملاً غير منقوص! ولكن الله كان لهم بالمرصاد! فإن الحشرات الضارّة التي كانت تلك العصافير تأكلها فتمنع أذاها عن الزرع بحكمة الله وتدبيره، انتشرت في الأرض بعد موت العصافير فأكلت خمسين في المائة من المحصول! وهكذا حين أراد البشر الضالُّون أن يعبثوا بالتوازن الذي أوجده الله في الأرض بحكمته أصابهم الجزاء الرادع من عند الله، وكانت هذه آية لهم لو كانوا يعتبرون!

وهكذا لو مَضَينا نتتبَّع آيات الله في الأرض، في الكبيرة والصغيرة، لوجدنا عجائب لا تنتهي.

خُذْ مَثَلاً هذه العجيبة: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة الرعد: الآية ٤).

فالأرض فيها قطع متجاورات تختلف بنيَة كل منها عن الأُخرى رغم تجاورها. بعضها ينبت الزرع وبعضها لا ينبته وبعضها يصلح لأنواع معيَّنة من الزرع دون غيرها.. وتلك وحدها عجيبة.

ثم إن الأرض الواحدة تنبت أنواعًا شتى من الزروع والنخيل والأعناب.. كلها يسقى بماء واحد ولكن بعضها يختلف عن بعض. حتى النوع الواحد كالنخيل تخرج منه النخلة المفردة والنخلة المزدوجة.. وتلك عجيبة أُخرى.

ثم إن هذه الزروع مختلفة الطعوم والمذاقات، يُفضَّل الناس في طعامهم بعضًا منها على بعض.. وتلك عجيبة ثالثة.

ثم إن الطعم الواحد قد يُفَضِّله إنسان ولا يُفَضِّله إنسان آخر حسب ذوقه الخاص المركَّب في طبعه.. وتلك عجيبة رابعة.. وصدق الله العظيم:

﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾.

Marfat.com

أمَّا الآيات في الأنفُس فإنها أعجب!

فالخليَّة الواحدة الملقّحة التي يتكوَّن منها الجنين تشتمل على كل خصائص الجنس البشري وهي لا تكاد تُرى! فينمو منها إنسان كامل فيه كل خصائص الإنسان!

ثم إنها تنقسم وتتخصَّص في أثناء نمو الجنين، فيصبح جزء منها رأسًا، وجزء آخر يَدًا، وجزء ثالث قَدَمًا.. وهكذا.

ثم إنها تحتوي كذلك على جزيئات تحمل الخصائص الوراثية التي يرثها الجنين من الأب والأُم أو الأجداد. فقد يحمل الجنين صفة من الأب كلون الشَّعْر مَثَلاً، وصفة من الأُم كلون العينين، وصفة من أحد الجدود كالطول أو القصر أو شكْل الأنف أو شكْل الأُذن.. بل الأعجب من ذلك وراثة الصِّفات النفْسيّة والعقليّة كالكَرَم أو البُخْل، والشجاعة أو الجُبن، والذكاء أو الغباء، والمَيْل إلى العلوم أو المَيْل إلى الآداب!

وهذه الصفات العقلية ذاتها.. ما هي؟ كيف توجد، وأين توجد؟

كيف يُفكِّر العقل؟

كيف يَتَذكَّر الإنسان ما يَتذكَّر؟

إن كل أبحاث العِلْم حتى هذه اللحظة قد عجزت عن أن تقول لنا كيف يُفكِّر العقل وكيف يتذكَّر! وأين تكون الأفكار وأين تختزن المعلومات وكيف يستدعيها الإنسان حين يريد استدعاءها وكيف تخطر على باله أحياناً بغير استدعاء!

والصفات النفسية كذلك.. ما هي؟ كيف توجد، وأين توجد؟

كيف تتكون في النفس صفة الكرم أو البُخْل أو الشجاعة أو الجُبن؟

وفي أي مكان تكمن هذه الصفة في الإنسان؟ في جسمه؟ أين؟ في مخه؟ أين؟ هل هي شيء معنوي أم مادي؟ وفي كلا الحالين كيف تؤثر في تصرفات الإنسان وسلوكه؟

Marfat.com

وأعجب من ذلك: كيف تورث ؟!

ولو مضينا نتتبَّع خصائص الإنسان، وآيات الله في الأنفس، لما انتهينا من العجب لكل خصيصة وكل آية، ولأدركنا أن هذا كله لا يمكن أن يحدث من تلقاء نفسه بهذه الدقّة المُذهلة. لابُدَّ له من موجد. ولا بُدَّ أن يكون هذا الموجد حكيما غاية الحكمة وقادرًا إلى حد الإعجاز، وإلا ما استطاع أن ينشىء هذا الخلق الدقيق المعجز، الذي تحتوي كل جزئية منه على عجائب لا يحصرها العقل.

ومن أجل ذلك يقول القرآن بحق: ﴿ وفي الارض آيات للموقنين، وفي أنفسكم. افلا تبصرون ﴾ ؟!

(٢)

﴿ أَمِ اتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ (١) ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (سورة الأنبياء: الآيات ٢١ ـ ٢٤).

في هذه الآيات يخاطب القرآن العقل لكي يتدبر الأمر ويستخلص نتيجة منطقية لما يرى حوله من الآيات، ويُطالبه أن يأتي بالبرهان على ما يدعى مخالفا للحق الظاهر.

فالحق الظاهر أن هذا الكون متناسق إلى أبعد ما يتصور العقل من التناسق:

﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾ (سورة الملك: ٣ ـ ٤)

فدورة الفلك المضبوطة التي لا تختل قيد شعرة في هذا الكون العريض كله..

---

(١) فيهما: أي في السماوات والأرض.

Marfat.com

ودورة الليل والنهار الناشئة من حركة الأفلاك، والتي تأتي في موعدها المضبوط بالدقيقة والثانية وأجزاء الثانية على مدار الفصول وعلى مدار القرون والأجيال..

وخواص المادة التي أودعها الله فيها لا تخطىء مرة واحدة على مر الزمن ولا تختلف مرة عن مرة. فالحديد هو الحديد والنحاس هو النحاس والأُكسجين هو الأُكسجين لا يتغير تركيبها ولا خواصها، ولا يتغير سلوكها إزاء الحرارة والبرودة او إزاء الضغط او في تفاعلاتها الكيماوية مع غيرها من العناصر. لا يحدث مرة واحدة أن يتكوَّن الماء إلا من ذرة من الأُكسجين وذرتين من الايدروجين. ولا يحدث مرة أن يسخن الحديد فلا يتمدد. ولا يحدث مرة أن يُطرق النُّحاس فلا يَنْطرق.

والذرة التي هي أبسط التكوينات التي أمكن للعلم حتى اليوم أن يكشف عنها في نظامها الدقيق العجيب المكون من نواة (هي البروتون) وأجسام صغيرة غاية في الدقة (هي الالكترونات) تدور حولها في نظام دقيق، متجاذبة معها ومتعادلة في الشحنة الكهربائية في وضع يشبه الشمس ومن حولها الكواكب..

والخلية الحية وسلوكها العجيب في غذائها وافرازها ونموها وتكاثرها..

والكائنات الحية وخصائصها التي تميز كل جنس منها عن الآخر، وتميز كل نوع من أنواع الجنس عن الآخر.. فللنبات عامة خصائصه، ولكل نوع من النبات خصائصه. وللحيوان خصائصه ثم لكل نوع من أنواعه خصائصه.

ثم الإنسان أعقد الكائنات الحية وأرفعها.. وكل جزء في تكوينه عجيبة في تناسقه وأداء وظيفته...

هل يمكن مع ذلك كله أن يكون في السماوات والأرض إلا إله واحد مسيطر مدبر حكيم؟

﴿ لَوْكَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾

أليس كل إله يخلق بمفرده كيف يشاء؟ فكيف يتطابق الخلق الصادر عن واحد من الآلهة مع الخلق الصادر عن إله غيره؟ كيف تكون الشجرة التي يخلقها واحد

Marfat.com

من الآلهة متطابقة تمامًا في كل أحوالهـا مع الشجرة التي يخلقها إله آخر ؟ كيف يكون المـاء الذي يخلقه أحـد الآلهة هو نفس الماء الذي يخلقه الإله الآخر من ذرة من الأُكسجين وذرتين من الايدروجين ؟

ثم .. كيف تنتظـم دورة الفلك التي ينشئها إلهان مختلفان ، ويشرف على شؤونها أكثر من إله ؟

هل يمكن أن تنتظـم إذا تعدَّدت الإرادة التي يهيمن عليها والسلطان الذي يسيرها ؟

ألا يحدث أن واحدًا من الآلهة يريد للشمس أن تشرق من المشرق وآخر يريدهـا أن تشرق من المغرب ! فكيف يصير الأمر ؟

ألا يحدث أن واحدًا من الآلهة يريد للإنسان أن يستوي على قدميه ويسعى في الأرض يبتغي الرزق ويعمر الأرض ، وآخر يريد له أن يمشي على أربع كالحيوان ، أو يبقى لاصقًا بالطين على ساق واحدة كالنبات ؟ فكيف يصير الأمر ؟

ألا يحدث أن واحدًا من الآلهة يريد للحديد أن يكون صلبًا تُصنع منه الأدوات الصلبة التي تعين الإنسان على عمـارة الأرض وتعينه على صُنْع السلاح الذي يُقاتل به لإعلاء كلمة الله : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ (سورة الحديد : الآية ٢٥) .

بينما إله آخر يريد أن يكون الحديد طريًّا ليّنًا عـديم الشكل ؟ فكيف يصير الأمر ؟

هل ينضبط شيء حينئذ في الكون كله وهل يستقيـم الأمر ؟ أم يصبح الكون فوضى ، تتصادم فيه الأفلاك وتتعارض ، وتتصادم فيه الإرادات المشرفة عليه وتتعارض ويصبح كالعقد المنفرط لا يجمعه نظام ؟

من أجل ذلك يخاطب القرآن العقل فيقول له : ﴿ لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾ .

Marfat.com

ثـم يخاطبه مرة أُخرى متحدياً بعد هذا البيان: ﴿ أم اتخذوا من دونه آلهة ؟ قل : هاتوا برهانكـم ! ﴾ .

نعم ! فليبحث العقل عن برهان ! إن الأمر ليس فوضى ، يقول فيه القائل بهواه ! بل لا بُدَّ لكل قول من برهـان. فهاتوا برهانكم ! هل تستطيعون أن تبرهنوا ـ والكون بهذا الاتساق المعجز ـ أن هناك إرادة أُخرى تسيطر على الكون غير إرادة الله ؟

فإن عجز العقل ـ وهو لا محالة عاجز ـ عن البرهان ، فليتدبر أمره وليؤمن بالله الواحد الذي لا شريك له في الملك ولا في السلطان .

(٣)

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ ﴾

(سورة المؤمنون : الآية ٩١) .

في مثل المناقشة العقلية التي ذكرناها في الفقرة السابقة (رقـم ٢) يُجرِي السياق هُنا مناقشة مع العقل البشري يقدم لهـا بمجموعة من الآيات يلفت فيها العقل إلى بعض الحقائق المسلمة التي لا يجادل فيها أحـد ، أو ينبغي ألا يجادل فيها :

﴿ قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ (سورة المؤمنون : الآيات ٨٤ ـ ٩١) .

فإذا سلـم الإنسان ابتداء بأن الأرض ومن فيها من صنع الله وإنشائه وهو مالكها . وإذا سلـم بأن السماوات السبع هي لله . هو منشئها وهو ربها ورب العرش

Marfat.com

العظيـم. وإذا سلـم بأن ملكوت كل شيء لله. هو المدبر فيه وحـده، وهو الذي يجير بقوته ولا يجـار عليه، لأنه صاحب العظمة والسلطان.. بدهيات لا يملك عقل أن ينكرها، وإلاّ جَابَهَ هذا السؤال الوارد في سورة الطور: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (سورة الطور: الآية ٣٥) وهو سؤال مُسكت مُلْجم يتحدى كل مُنكِر[1]...

إذا سلـم الإنسان بكل هذا فقد لزمه ـ منطقيًا ـ أن يسلـم بالنتيجة التي تؤدي إليها هـذه المقدمات، وهي أنه إله واحد لا شريك له ولا يمكن أن يكون له شريك. لذلك يكرر السياق التذكير بعـد كل مقدمة من المقدمات: «أفلا تذكرون»؟ «أفلا تتقون»؟ «فأنىً تسحرون»؟!

ولكن السياق لا يكتفي بالتذكير المصحوب بالتقريع، بل يمضي مع العقل البشري خطوة أُخرى في المناقشة فيعرض أمامه هذه الحقيقة ليتدبرها:

لنفرض جدلاً أنه كان مع الله آلهة أُخرى فكيف يكون الموقف؟

﴿ اذا لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهـم على بعض ﴾؟

في الفقرة السابقة (رقم ٢) في آية سورة «الأنبياء» كان يعرض أمر الفساد الذي كان لا بُدَّ أن يحدث في السماوات والأرض لو كان فيهمـا آلهة إلا الله:

﴿ لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا ﴾.

وما دام هذا الفساد غير حادث، والكون منضبط في حركة كمـا نرى، فقد انتفى إذاً وجود آلهة غير الله.

وفي هذه الآية من سورة «المؤمنون» يعرض الأمر من الوجهة الأُخرى. وجهة الآلهة ذاتهم ـ لو أنهم أكثر من إله واحد ـ وما كـان لا بُدَّ أن يحدث بينهم من صراع ونزاع: ﴿إذاً لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهـم على بعض﴾.

---

(١) سنتحدث عن الآية في فقرة مستقبلة بإذن الله.

Marfat.com

فإذا كان كل إله خلق جزءًا من الخلق فهل يعقل أن يتنازل عن خلقه لإله آخر ؟ أم المعسول والبدهي أن يتشبث بخلقه ويستحوذ عليهم ويحاول أن تكون له السيطرة عليهم وحده ؟ وعندئذ ماذا يحدث ؟! يحدث نزاع بين الآلهة المزعومة على السيطرة ! هـذا يريد أن يسيطر وهذا يريد أن يسيطر ! كل منهم يريد أن تكون له وحده الكلمة النافـذة في الكون ويكون أمره هو المُطاع ! هذا يصدر أمرًا ويطلب تنفيذه ، وذاك يصدر أمرًا مضادًا ويطلب تنفيذه . وكل يتشبث بكلمته زاعمًـا أنه هو الأعلى وهو الأحق بأن تسمع كلمته ويُطاع !

فهل هذه الآلهة ـ المتوهمة ـ تستحق الاحترام وهي هكذا تتعـامل مـع بعضها البعض ؟!

وهل يستقر حال الكون وهي ـ في صراعها على السلطة ـ تصدر الأوامر المتباينة للكون ، فيحار الكون لأي أمر يذعن وأي أمر يطيع ؟!

كلا ! ما كان حال الكون ليستقر لو أنها آلهة متعددة تتصارع فيمـا بينها وتتنازع . وما كان الكون ليبدو متناسق الحركة متناسق الصنعة متناسق التدبير .

والعقل البشري مكلف أن يفكر ويتدبر ..

فما دام الإنسان قـد سلـم أو ينبغي أن يسلـم ـ بأن الأرض لله ، والسماوات السبع لله ، والملكوت لله ، والتدبير لله .. فـاذا بقي إذن من عمل تقوم بـه تلك الآلهة الأُخرى المزعومة ؟

وما دام الكون في سيره لا يبدو عليه الخلل والاضطراب ، بل يظهر فيـه الاتساق الكامـل والانضباط ، أفلا يدل ذلك على وحـدة السيطرة التي تـدبر شؤونه وترعاه ؟!

Marfat.com

﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

(سورة النمل: الآيات ٥٩ ـ ٦٤).

هنا في الحقيقة خطاب للوجدان والعقل في آن واحد. وقد أسلفنا القول إن القرآن كثيرًا ما يقرن خطاب الوجدان مع خطاب العقل في سياق واحد. ولكنا هنا سنركز تركيزًا أكبر على أدلة العقل وبراهينه، وفيما مضى من الحديث عن الوجدان في الفصل السابق ما فيه الكفاية.

يبدأ السياق بسؤال في الآية الأُولى بعد حمد الله والسلام على عباده الذين اصطفاهم بالنبوّة والرسالة. وهذا السؤال يواجه الإنسان كله، وعقله بصفة خاصة: ﴿ آلله خير أم ما يشركون ﴾؟

والإجابة عن السؤال تقتضي المقارنة ـ إن كان هناك مجال للمقارنة ـ بين الله سبحانه وتعالى وبين الآلهة المزعومة التي يعبدها بعض الناس مع الله أو من دون الله، ليتبين أيهما خير: الله أم تلك الآلهة المدعاة؟

والسياق القرآني يبادر العقل بما يعينه على معرفة الإجابة الصحيحة، إن كان ـ لسبب من الأسباب ـ يجهلها! فيقدم له أول المعينات في صورة سؤال آخر لو اهتدى لإجابته ـ وهي بدهية في الحقيقة ـ لاهتدى في ذات الوقت لإجابة السؤال الأول الذي تَصَدَّر السياق، وهو قوله تعالى: ﴿ آلله خير أم ما يشركون ﴾؟

Marfat.com

تسأل الآية الثانية في السياق: من الذي خلق السماوات والأرض؟ ومن الذي أنزل عليكم من السماء ماء فأنبت بـه حدائق بهيجة المنظر ما كان لكم أن تنبتوا شجرها لولا ما أنزل الله لكم من السماء من ماء، ولولا ما أودع فيها هي ذاتها من خاصية النمو حين ينزل عليها الماء؟

وقبل أن يجيب الإنسان الذي يوجه له ذلك السؤال، يبادره السياق بسؤال ثالث يحمل في طياته في الحقيقة إجـابة السؤال السابق: يقول: ﴿ أإله مع الله ﴾ ؟!

وهكذا يحاصره السياق حصارًا كاملاً بحيث لا يجد مفرًا من الإجابة الوحيدة التي يستقيـم بها الأمر كله!

﴿ أإله مع الله ﴾ كلا!

وإذن فالسؤال السابق ليست له إلا إجابة واحدة كذلك: ﴿ أم من خلق السماوات والارض وأنزل لكـم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكـم ان تنبتوا شجرها ﴾ ؟ هو الله!

وإذن فالسؤال الذي صدر به السياق قد تحددت إجابته على وجه التأكيد: ﴿ آلله خير أم ما يشركون ﴾ ؟ بل الله!

ولقد كان يكفي العقل والوجدان معًا هذه الجولة لتقر النفس بألوهية الله الواحد بلا شريك. ولكن الله العليـم الخبير يعلـم من أحوال النفس البشرية أنهـا تحتاج إلى التذكرة مرة ومرة ومرة. ومن ثم يبدأ السياق على نفس النسق جولة ثانية وثالثة ورابعة.. وخامسة.

﴿ أم من جعل الارض قرارا وجعل خلالها أنهارا، وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزا؟ أإله مع الله؟ بل أكثرهـم لايعلمون ﴾.

فإذا كانت الجولة الأُولى مع خلق السماوات والأرض ومع الماء النازل من السماء إلى الأرض، ومع الحدائق النابتة من نزول المـاء، فهذه الجولة كلها في الأرض، تذكر جعل الأرض مستقرًا للإنسان يجد فيها رزقه ومعاشه ومتاعه المقدر له إلى حين،

Marfat.com

وتذكر جعل الأنهار خلال هذه الأرض، وجعل الرواسي لها لتكون سببًا في استقرارها، وجعل الماء العذب الذي أعدّه الله لشرب الكائنات الحية محجوزًا عن الماء الملح الذي تعج به البحار والمحيطات.. وكلها من آيات رحمة الله بالإنسان كما أنها من آيات قدرته. فمن غير هذا الإله القادر يستطيع أن «يجعل» كل هذه الأشياء على صورتها التي هي عليها؟ وعندئذ يجيء التعقيب في مكانه: أإله مع الله؟ وإجابته قد تقررت منذ الجولة السابقة، ولكنه المزيد من التوكيد.

أمَّا الجولة الثالثة في محيط البشر، تذكرهم بما يقع لهم ولكنهم ينسونه في غفلتهم: أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف ما به من سوء؟ ومن يجعلكم خلفاء الأرض جيلاً بعد جيل، ترثون الأرض بعد آبائكم وتتمكنون فيها وتسخرونها لمعايشكم؟ أيتمّ ذلك من تلقاء نفسه؟ وكيف يتمّ إذا لم يخلقكم الله أصلاً من أصلاب آبائكم؟ وكيف يتم إذا لم يبق الله الأرض لترثوها منهم؟! ثم يجيء التعقيب المكرر، ليزيد الأمر توكيدًا في النفس: أإله في الله؟ والإجابة هي الإجابة بكل تأكيد.

والجولة الرابعة مع البشر كذلك، ولكنه تذكر نعمًا أُخرى من نعم الله على الإنسان: من يهديكم في ظلمات البر والبحر؟ فإذا كان ضوء الشمس يهديكم بالنهار ولكنكم تنسون النعمة وتغفلون عنها، فإنكم أولى أن تتذكروا الهداية في الليل والظلمة محيطة في البر وفي البحر. فهنا تتلمسون الهداية فلا تجدونها إلا بعون الله لكم سواء بالنجوم تحدد لكم اتجاهكم، أو بالقمر يرسل نوره فيكشف جانبًا من الظلمة، أو فيما هداكم الله إلى عمله من المشاعل والمصابيح التي تنير الظلام. ثم نعمة أُخرى يذكر الله بها الإنسان: ومن يرسل الرياح تبشر برحمة الله المتمثلة في السحاب والمطر! «أإله مع الله»؟ كلا! «تعالى الله عمّا يشركون»!

وتجيء الجولة الأخيرة كالأُولى تشمل السماوات والأرض وتربط ما بين السماوات والأرض، وتزيد عليها ذكر البعث: من الذي يبدأ الخلق ثم يعيده؟ أهناك غير الله من تبلغ قدرته أن يخلق من لا شيء؟ ومن يعيد الخلق حين يشاء؟ ومن يرسل لكم

Marfat.com

الرزق من السماء والأرض؟ ﴿ أإله مع الله؟ قل: هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾!

وحين يصل السياق إلى غايته يكون الوجدان والعقل قد وصلا كذلك إلى غايتهما من التمثل لهذه الحقيقة الكبرى: حقيقة وحدانية الله بلا شريك. فإذا جاء التحدي الأخير: ﴿ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ فليس له جواب إلا الاقتناع الكامل والتسليم.

(٥)

﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَآئِكُمْ مَنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَآئِكُمْ مَنْ يَهْدِيٓ إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِيٓ إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّيٓ[1] إِلَّآ أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْـًٔا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (سورة يونس: الآيات ٣١-٣٦)

السياق هنا قريب من السياق السابق في آيات سورة «النمل» ولكنه يختلف عنه في أمرين:

الأمر الأول: أنه في السياق السابق كان يذكر آيات الله في السماوات والأرض والناس ثم يسأل: أإله مع الله؟ وتكون الإجابة الضمنية الطبيعية هي: لا! ليس مع الله إله. ليس لله شريك في الخلق ولا في الملك ولا في التدبير.

أمّا هنا فالسياق يشير إلى الشركاء بالذات، ويركز عليهم. يركز عليهم لينفي وجودهم. ولكنه لا ينفيه نفيًا مباشرًا، إنما من خلال سؤال مكرر: هل من شركائكم

---

(١) أي لا يهتدي.

Marfat.com

ـ المزعومين بطبيعة الحال ـ من يفعل كذا أو كذا مما يفعله الله ؟ فإذا كان الجواب بالنفي ـ ولا بُدَّ أن يكون بداهة كذلك ـ فماذا يفعل الشركاء إذن ؟ وإن لم يكن لهم عمل فما معنى وجودهم ؟ إنهم إذن لا وجود لهم ما داموا لا يعملون شيئًا على الاطلاق !

والأمر الثاني : أنه ينبه العقل الغافل إلى طريق التفكير الصحيح . إنه لا يجوز للعقل ـ الذي خلقه الله للتفكر والتدبر ـ أن يأخذ الأُمور بالظن ، دون تمحيص وبرهنة واثبات . والظن لا يغني شيئًا عن الحق . فعلى الذين يأخذون القضية بالظن أن يتخلوا عن هذا الطريق الخاطىء ويتبعوا الطريق الصحيح ، طريق الدليل الصحيح والبرهان .

تبدأ الآية الأُولى بسؤال حاشد : من يرزقكم من السماء والأرض ؟ من يملك السمع والأبصار ؟ من يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ؟ من يدبر الأمر ؟ وهي لمحات سريعة في مجالات شتى في آن واحد ، تحاصر العقل وتحصره في إجابة واحدة : ﴿ فسيقولون الله ﴾ ! وإذا كان الأمر كذلك أفلاتتقون ، وقد عرفتم الإجابة الصحيحة على السؤال !

﴿ فذٰلكم الله ربكم الحق ، فماذا بعد الحق الا الضلال . فأنى تصرفون ﴾ ؟

الله الذي عرفتموه ، وعرفتم أنه هو الذي يرزقكم من السماء والأرض ويملك سمعكم وأبصاركم ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويدبر الأمر .. هو ربكم الحق . لا ربوبية لغيره ، فكيف تتجهون إلى غيره ؟ كيف تحيدون عن الحق الواضح فتضلون ؟ فإن من تجاوز الحق فليس أمامه سوى الضلال .

﴿ كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون ﴾ .

لأنهم يصرون على مجاوزة الحق فيقعون في الضلال .

ثم تجيء المناقشة التي أشرنا إليها : ﴿ قل : هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ ؟ فإذا كان الجواب بالنفي ـ كما لا بُدَّ أن يكون ـ ﴿ قل : الله يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ . فإذا اتضح هذا الأمر : أن الله يبدأ الخلق ثم يعيده بينما الشركاء المزعومون

Marfat.com

لا يبدأون خلقًا ولا يعيدون ﴿ فأنى تؤفكون ﴾ ؟ أنى تصرفون عن الحق تتبعون الزور والإفك ؟

ثم مناقشة أُخرى : ﴿ قل : هل من شركائكم من يهدي إلى الحق ﴾ ؟ والجواب ـ كالمرة السابقة ـ بالنفي . فلم يُؤْثَرْ عن أحد من أولئك الشركاء المزعومين أنه أنزل لهداية البشر كتابًا ولا أرسل رسولاً ! فإذا كان الأمر كذلك ﴿ قل : الله يهدي للحق ﴾ فيرسل الرسل وينزل الكتب ويدعو الناس إلى ما فيه صلاح الدنيا وصلاح الآخرة ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ (سورة يونس : الآية ٢٥) .

ثم يمد السياق المناقشة خطوة أُخرى : إذا كان الله يهدي للحق والشركاء المزعومون لا يهدون إلى الحق .. فمن أحق أن يتبع ويُطاع : ﴿ أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أَمَّنْ لاَ يَهِدِّىٓ إِلاَّ أَن يُهْدَىٰ ﴾ ؟ الله أحق أن يتبع أم أولئك الذين لا يهتدون من ذات أنفسهم ويحتاجون هم أنفسهم إلى من يهديهم . والإشارة هنا إلى الأصنام التي كان العرب يعبدونها في الجاهلية ، ولكنها في الحقيقة تنطبق على كل من يتوجه إليه الناس في كل جاهلية ، ممن لا يملكون لأنفسهم الهدى ، ويتصدون لهداية الناس ! فإلى أي شيء يهدونهم إلا إلى الضلال ؟ ﴿ فما لكم كيف تحكمون ﴾ ؟

أين عقولكم التي تفكرون بها ؟ وكيف أدت بكم هذه العقول إلى هذا الحكم الفاسد الذي تحكمون به في القضية ، فتقولون ـ بألسنتكم أو بأفعالكم ـ إن هؤلاء الشركاء أولى بالاتباع من الله وهم لا يملكون الهدى لأنفسهم فضلاً عن هداية الناس ؟

السبب هو أنهم لا يحكّمون عقولهم في الحقيقة . ولو حكّموها لحكمت بالصواب ، فالأدلة قائمة والبراهين موجودة ، ولكنهم يتبعون الظن فيضلون عن الصواب :

﴿ وما يتبع أكثرهم إلا ظنًا . إن الظن لا يغني من الحق شيئًا ﴾ .

والله أعلم بهم : ﴿ إن الله عليم بما يفعلون ﴾ .

Marfat.com

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ ؟ (سورة الطور : الآية ٣٥).

هذه الآية تحمل أكبر تحد للعقل البشري الضال خلال التاريخ.. وكأنها نزلت للضالين اليوم الذين ينكرون وجود الله ويلجون في الغي والإلحاد.

إن الذين يلجون في الغواية إلى هذا الحد لا ينكرون وجود الله في الحقيقة .فلا يمكن للفطرة ـ مهما ضلَّت ـ أن تنكر وجود الله الخالق . ولكنهم ـ لسبب من الأسباب ـ يُكابرون، ويتظاهرون بالإنكار.

وحتى أولئك الذين يعيشون في ظل الإلحاد، في الدول الشيوعية، ويُدَرَّس لهم الإلحاد في المدارس، ويتربون عليه، ويلقنونه في كل حصة من حصص الدراسة.. حتى هؤلاء لا تقر نفوسهم بإنكار وجود الله إلا مجاراة للأوضاع، وخوفًا من سطوة الدولة الكافرة هُناك.

وإليك مِثَالاً يثبت لك هذه الحقيقة.

حين صعد «جاجارين» رائد الفضاء الأول إلى الجو[1]، أخذته روعة الكون وذهل لما رآه.

لقد رأى الكون على صورة أُخرى غير التي نراها ونحن على سطح الأرض مغلفين بالغلاف الجوي.

لم يرَ السماء زرقاء كما نراها نحن، إنما رآها سوداء تمامًا. ورأى الكواكب والنجوم في داخلها لامعة شديدة اللمعان. لقد كان المنظر ـ كما يصفه روّاد الفضاء ـ يشبه قطعة من المخمل الأسود، مرصعة بالجواهر اللامعة.

وفوجىء «جاجارين» بما رآه..

فوجىء بالتجربة الجديدة والمشهد الجديد..

---

(١) هو أول رائد فضاء انطلق إلى طبقات الجو العليا في داخل صاروخ، وهو روسي الجنسية.

Marfat.com

والمشهد الجديد كمـا ذكرنا آنفًا يوقظ الحس من غفلته، ويوقظ المشاعر من سباتها، ويجلي الكون جديدًا كأنما يواجهه الإنسان لأوّل مرة، فيدرك من دلائل إعجازه ما كان غافلاً عنه من قبل، ويحس بيد الله المبدعة وآثارها في تضاعيف هذا الكون.

وهذا هو الذي حدث لجاجارين..

لقد نسي كل إلحاده الذي ربَّته المدرسة عليه.. نسي كل الدروس التي لُقِّنَ فيها أنه لا وجود لله.. وأخذ يحملق في الكون مدهوشًا من صنعة الله، مبهورًا بمـا رآه من إعجاز..

وحين هبط إلى الأرض كان أول تصريح أدلى به للصحفيين الذين استقبلوه:

«حين صعدت إلى الجو أخذتني روعة الكون فمضيت أبحث عن الله»!

وهكذا تنطق الفطرة حين تواجه الحقيقة!

وهذا على الرغم من كل الإلحاد الذي لُقِّنَ لجاجارين[1]!

كلا! إن الفطرة لا يمكن أن تنكل أبدًا عن الشهادة!

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا ﴾

(سورة الأعراف: الآية ١٧٢).

إنما الذي يحدث أن الإنسان الضال يكابر في هذه الحقيقة لأنه لا يريد أن يخضع لله. ولو أقر علانية بوجود الله للزمه أن يطيعه وأن يعبده، وهو ـ لأمر من الأُمور ـ لا يريد. وبدلاً من أن يبدو مقصرًا وناكلاً ـ باعترافه ـ فإنه «يتفلسف» فيدعي أنه لا يؤمن بوجود الله.

وكيف يمكن للفطرة أن تنكل عن الشهادة، والكون حولها ـ بكل ما فيه ـ يحاصرها ويردها إلى الحقيقة؟

---

(١) من طريف ما يُروى أن الدولة غضبت على جاجارين بسبب هذا التصريح، وأمرته أن يضيف إليه ما ينفيه فقال: «... فبحثت عن الله فلـم أجده!!» ونشرت الصحف تصريحه الثاني بعد الأول بساعات!!

Marfat.com

كيف تواجه الفطرة أمر الخلق؟

كيف تحل المشكلة إن لم تقر بوجود الله؟

كيف إذن تم هذا الخلق الذي تدركه الحواس ولا سبيل إلى إنكاره: السماوات والأرض والشمس والقمر والنجوم والكواكب.. وكل ما على الأرض من شيء بما فيه الإنسان نفسه؟

كيف تم..؟ بغير خالق؟ هكذا من العدم؟!

ثم كيف انتظم بعد أن تم؟

ثم كيف حافظ على نظامه كل تلك الملايين من السنين، لا يحصيها العقل البشري، دون أن يحدث في نظامه خلل أو اضطراب؟!

هل يتمّ ذلك كله بغير خالق؟!

وهل يتقبل العقل هذا القول، حتى إن ضل هذا العقل وسار في الظلمات؟

يقولون إن «الطبيعة» هي الخالق!

كذبوا!.. وما الطبيعة؟!

يقولون إن الطبيعة تخلق كل شيءٍ ولا حد لقدرتها[1]!

سبحان الله! أليس هذا هو الله؟ هو الذي يخلق كل شيء ولا حد لقدرته؟!

فلماذا نسمي الله بالطبيعة؟ أي منطق في هذه التسمية العجيبة؟

ألا انه الهوى، وليس العقل، وليست «الفلسفة»!

الهوى الذي يمنع الإنسان من الاعتراف بالحق مع أنه ـ في داخله ـ يعلم أنه الحق! ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ (سورة النمل: الآية ١٤).

ولكن القرآن يتحداهم.. يتحداهم منذ أربعة عشر قرنًا.. وسيظل يتحداهم حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

﴿ أم خلقوا من غير شيء؟ أم هم الخالقون ﴾؟

---

(١) هكذا يقول دارون، فيقر بالقدرة الالهية، ولكنه لا ينسبها الى الله!

Marfat.com

أما أنهم هم الخالقون فأمر لم يزعمه أحد من المضلين!

بقي السؤال الأول بغير جواب: ﴿ أم خلقوا من غير شيء ﴾؟

وهو السؤال المُلْجِم المُسكت، الذي لا يملك أحد من المكابرين أن يرد عليه بالإيجاب.

ولم يبق إلا أمر واحد، هو أن يكون هناك خالق، هو الذي خلق الخلق بقدرته، وهو الذي يدبر الأمر وحده بلا شريك.. وذلك هو الأمر الذي لا تملك الفطرة أن تنكره وإن ضلَّت وإن أمعنت في الضلال.. إنما ينكره المكابرون باللسان، لكبر في نفوسهم عن عبادة الله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (سورة غافر: الآية ٥٦).

ونستعيذ بالله كما أمرنا القرآن. ونؤمن في الوقت ذاته بأن أولئك الجاحدين لا يجحدون الله في الحقيقة إنما هم فقط يتظاهرون.. وحتى إن وصلت الغاشية بهم إلى أن تغشى قلوبهم وأرواحهم، وسمعهم وأبصارهم، فهم عرضة لأن يتيقظوا لحقيقة الألوهية كما تيقظ لها جاجارين!

Marfat.com

تيقّظ الايمان المذكور في الفطرة وقت الشدّة

يُعاند الإنسان ويُكابر في وقت الرخاء. بل قد يزيده الرخاء والأمن غفلة وبُعْدًا عن الله إن كان من ذوي القلوب المريضة. ولكنه في وقت الشدة لا يستطيع أن يستمر في عناده ومكابرته!

إنه من جهة ينكشف أمام نفسه، عاجزًا قليل الحيلة محتاجًا إلى العون، وتزول عنه عنجهيته الفارغة التي يستكبر بها على الله والناس!

ومن جهة أُخرى يتيقظ الإيمان المركوز في فطرته، والذي تشهد به الفطرة كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ (سورة الأعراف: الآية ١٧٢).

عندئذ ينسى الشركاء المزعومين إن كان يعبد شركاء من دون الله أو مع الله. أو ينسى إلحاده إن كان من الملحدين المنكرين لوجود الله أصلاً، ويتوجَّه من أعماق قلبه إلى الله الحق، يدعوه ليكشف ما به من سوء!

والقرآن يواجه الناس بحقيقتهم ليكشفها لهم، ويكشفهم هم أمام أنفسهم!

بل إنه يواجههم بحقيقة أُخرى، أشد دلالة على ما في نفوسهم من انحراف.

فياليتهم بعد أن عرفوا الله في وقت الشدة، وانكشف لهم الحق من الباطل، وأدركوا أن الله وحده هو الموجود الحقيقي، وهو الذي يملك كشف الضر، وهو الذي تجب عبادته وحده دون شريك، والتوجّه إليه وحده دون شريك..

ليتهم بعد أن عرفوا كل ذلك قد استقاموا عليه!

ولكنهم ـ لِما في أنفسهم من اعوجاج ومرض ـ ما يكاد ينكشف عنهم الضر الذي دعوا الله من أجله مخلصين له الدين، حتى يعودوا سيرتهم الأُولى كأن لم يحدث شيء، وكأنهم لم يمروا بالشدة، ولم يؤمنوا بالله في أثنائها!

Marfat.com

وهذا الذي يواجههم به القرآن لعلهم يراجعون أنفسهم فيتخلون عن انحرافهم ويستقيمون :

١) ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ (سورة يونس : الآية ١٢).

٢) ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (سورة يونس : الآيتان ٢٢ ـ ٢٣).

هذه الآيات كلها من سورة يونس، تصور حالة عامة للإنسان يصيبه الضر فيلتجىء إلى الله، ويدعوه أن يكشف ما حلَّ به من الشدة. والآية تصوره على جميع أوضاعه. فإذا كان الضر الذي أصابه قد ألجأه إلى النوم على جنبه من مرض أو نحوه فإنه يدعو الله على حاله تلك: «دعانا لجنبه» وإن كان قاعدًا أو قائماً دعا الله كذلك في قعوده أو قيامه. أي أنه حيثما كان وضعه في حالة وقوع الضر عليه فإنه يلتجىء إلى الله ضارعًا أن يصرف عنه ما به من سوء. وقد يكون الهمّ الذي حلَّ به هَمًّا نفْسيًا لا جسميًا، وهو في هذه الحالة يدعو الله كذلك. يدعوه في كل وضع من أوضاعه: «لجنبه أو قاعدًا أو قائماً» لأن الهمّ الذي ركبه يُلازمه في جميع أحواله، فيلجئه إلى الدعاء في كل حال.

فهل حين يكشف الله عنه الضر يتذكر؟

هل يتذكر كيف كان في وقت الشدّة ضارعًا إلى الله، موقنًا في دخيلة نفسه ألاّ منقذ له سواه؟ كلا!

﴿ فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه ﴾!

والتعبير القرآني بكلمة «مرَّ» يصور تصويرًا دقيقًا حالة ذلك الإنسان وقد

Marfat.com

عوفي من البلاء الذي حلَّ به، سواء كان جثمانيًّا أو نفسيًّا، فإذا هو منتفش مزهو، «يمر» دون مبالاة ولا اعتبار كأن لم يكن بالأمس القريب يجأر بالشكوى ويجأر بالدعاء! لقد نسي! ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾! (سورة فصّلت: الآية ٥١).

أمَّا الآيتان الثانيتان من سورة يونس فتصفان حالة خاصة. حالة قوم ركبوا في سفينة والجوّ رخاء والريح ساكنة، وهي تجري بهم جريًا مطمئنًّا على صفحة الماء، فالقوم فرحون بركوبهم، مستبشرون برحلتهم مستمتعون بها. وفجأة تهب الريح عاصفة فيتغير كل شيء في لمحة! تتغير الملامح والمشاعر والأفكار! فيحل القلق محل الطمأنينة والانزعاج محل الاستبشار. ويبدو الكرب على الملامح التي كانت وادعة ناعمة من قبل!

فلمن يلجأون عندئذ؟

إنه لا ملجأ إلا إلى الله!

﴿ دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذا لنكونن من الشاكرين ﴾!

لقد تقطعت بهم الأسباب، وتعلَّقت نفوسهم بقدر الله. علموا أنه لا منقذ لهم مما هم فيه من الكرب إلا رحمة الله. فالكرب أكبر من قوّتهم، وهم عاجزون إزاءه... والإنسان يطغى ويستكبر وهو يحس بالقوة، فيعتقد أنه لن ينهزم أمام شيء! فإذا رأى قوَّته تتضاءل وتتضاءل حتى يدركها العجز، ورأى الكرب يشتد حتى لم تعد له به قوّة.. عندئذ يرى نفسه على حقيقتها، ويزول عنه الكبر المزيف والطغيان. ويلجأ إلى القوة الحقيقية: قوة الله، موقنًا أنها هي وحدها التي تنقذه، وأن كل ما عداها هباء..

والتعبير القرآني يظهر هذه الحقيقة بوضوح: «دعوا الله **مخلصين له الدين**».

في تلك اللحظة الحرجة، لحظة الانقطاع من كل أمل في الخلاص أو العون، يكون إحساس الإنسان بالذات الإلهية واضحًا مستقرًّا عميقًا في النفس، كأنما كان

Marfat.com

هناك ستار يغشى هذه الحقيقة في النفس فانجاب الستار وانكشفت الحقيقة. ويكون التوجه إلى الله مخلصًا كذلك. فالخطر الداهم مفزع، والملجأ الوحيد هو الله. عندئذ يتشبث الإنسان بالملجأ، صادق الرغبة في الالتجاء. وحين يدعون الله مخلصين له الدين يكونون في لحظتها صادقين في قولتهم: ﴿ لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ﴾ ذلك أنهم في فزعهم يشعرون أن الله قد يرضى عنهم ويخلصهم مما هم فيه من الكرب إذا تابوا إليه من انحرافهم واستقاموا على أمره، فيلجئهم الفزع إلى نية التوبة وإلى الوعد بالشكران. ولا يكون الشكران إلا بطاعة الله.

ولكن.. كم تبقى تلك المشاعر على إخلاصها؟!

فقط لحين تنتهي الشدة ويزول الكرب!

﴿ فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق ﴾!!

ما أسوأ هذا الإنسان وما أخسره!

لقد عاد الستار الذي كان يحجب حقيقة الأُلوهية في نفسه فانسدل كما كان، وران على قلبه ما كان يرين عليه من قبل. ولم تكن تلك الصحوة إلا صحوة عارضة أنشأتها الشدة، فلما زالت الشدة عاد إلى ما كان فيه من غفلة، واستنام إلى ما كان فيه من بهتان!

﴿ يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم، متاع الحياة الدنيا ﴾.

نعم! إنه متاع الحياة الدنيا، ذلك المتاع الزائل الزائف هو الذي يلهيهم فينسيهم ربهم، وينسيهم آخرتهم، فيغرقون في هذا المتاع القريب غافلين عن كل ما عداه.

ولكن بغيهم هذا هو في الحقيقة على أنفسهم. فماذا بعد ذلك المتاع القصير، المحدود بسنوات العمر المعدودة، ولو خلصت سنوات العمر كلها للمتاع؟!

﴿ ثم إلينا مرجعكم بما كنتم تعملون ﴾.

وعندئذ يذهب ذلك المتاع، بل تذهب حتى ذكراه، ولا يتبقى له إلا مصيره

Marfat.com

البائس الذي يذكّر به فينساه[1]!

• • •

تجد هذا المعنى مكررًا في القرآن في أكثر من موضع، وتستطيع أن تراجع بنفسك هذه الآيات.

١) ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾﴾ (سورة الأنعام: الآيتان ٦٣ـ٦٤)

٢) ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ (سورة الإسراء: الآية ٦٧)

٣) ﴿لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾﴾ (سورة فصّلت: الآيتان ٤٩ـ٥٠)

---

(١) حدّثنا الخليل بن عمرو حدّثنا محمّد بن سلمة الحراني عن محمّد بن إسحاق عن حميد الطويل عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: «يؤتى يوم القيامة بأنعم أهل الدنيا من الكفّار فيُقال اغمسوه في النار غمسة فيُغمس فيها ثم يُقال له: أي فلان، هل أصابك نعيم قط؟ فيقول: لا، ما أصابني نعيم قط! ويؤتى بأشدّ المؤمنين ضرًا وبلاءً فيُقال اغمسوه في الجنة فيُغمس فيها غمسة فيُقال له: أي فلان، هل أصابك ضر قط أو بلاء؟ فيقول: ما أصابني قط ضر ولا بلاء» رواه ابن ماجه في كتاب الزهد.

Marfat.com

القرآن يتولى الرد على دعاوى المبطلين

يُبيِّـن الله في كتابه الكريم حقيقة الأُلوهية للناس كافة. فقد نزل القرآن للبشرية كلها منذ بعثة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلّـم إلى أن تقوم الساعة. فلا نبي بعد محمّد صلى الله عليه وسلّـم، ولا كتاب يتنزل من عند الله بعد القرآن.

ولما كانت نقطة البداية بالنسبة للبشر جميعًا هي أن يتعرفوا على إلههم الحق لتستقيـم أحوالهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة، فلا يعبدوا غيره، ولا يتلقوا منهج حياتهم من غيره، وإنما يعبدونه وحده سبحانه، وينفذون مشيئته وحده، فيكون لهم في الحياة الدنيا نظام رباني ينظـم حياتهم، ويكون لهم في الآخرة جزاء الحسنى: جنّات تجري من تحتها الأنهار..

لذلك فإن أهم ما يتولى القرآن بيانه للنـاس هو حقيقة الأُلوهية والربوبية.

وقد رأينا في الفصول الثلاثة السابقة كيف يتولى القرآن تعريف النـاس بإلههم، مرة بإيقاظ وجدانهـم لآيات الله في الكون والحياة، ومرة بمناقشة عقولهم بالبراهين والأدلة التي تبين الحق، ومرة بتذكيرهم بمـا يكون منهم في أحوال الشدة من اللجوء إلى الله وحده ونبذ كل شريك مع الله أو من دون الله.

ولكن القرآن لا يكتفي بهذا البيان المتعدد الوسائل، بل يتتبع دعاوى المبطلين واحدة واحدة يرد عليها ويفندها، حتى لا يبقى عذر لأحد من البشر جميعًا يتعلل به في الانحراف عن الإيمان بالله الحق.

ولقد كانت الدعوة الإسلامية تواجه وقت نزول القرآن ألوانًا عديدة من الانحرافات تتعلّق بحقيقة الأُلوهية والربوبية.

كانت الوثنية في الجزيرة العربية تعبد الأصنام وتعتبرها آلهة تُشارك الله في بعض صفاته، كمـا كان بعضهم يعبدون الجن.

Marfat.com

وكان المنحرفون من أهل الكتاب يزعمون لله ولدًا: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ (سورة التوبة: الآية ٣٠) كما كانت العرب في الجاهلية تقول: الملائكة بنات الله!

وكانت الجاهلية العربية تنكر على الله قدرته على البعث وتعد الحديث عنه جنونًا لا يتقبله العقل!

والدهريون ينفون البعث أصلاً، أو ينفون أن يكون لله دخل بالأمر كله: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ (سورة الجاثية: الآية ٢٤).

كما كان هؤلاء جميعًا يقعون في شرك واحد مشترك هو عدم اتباع ما أنزل الله، والحكم بغير ما أنزل الله.

وتولى القرآن الرد على ذلك كله منذ أربعة عشر قرنًا، ففند تلك الدعاوى الباطلة كلها، وأبطلها من أساسها، وبيّن وجه الحق فيها.

واليوم ينظر الإنسان إلى البشرية الضالة في أرجاء كثيرة من الأرض، فيجد ضلالات اليوم كضلالات الأمس: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾ (سورة البقرة: الآية ١١٨)

ويجد أن القرآن قد تولى الرد عليها سلفًا منذ أربعة عشر قرنًا، وما جاءوا في إفكهم بجديد! ويحس الإنسان وهو يتلو القرآن ويتدبره كأنما يتنزل اللحظة للرد على أولئك الشاردين وردهم إلى دعوة الحق!

﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (سورة ص: الآية ٢٩).

وفي هذا الفصل نستعرض ردود القرآن على دعاوى المنحرفين، وسنرى أن بعضها قد ورد من قبل في أثناء شرح طريقة القرآن في بيان حقيقة الأُلوهية وبعضها لم يرد له ذكر من قبل، وسنجد في نهاية الكتاب أنه قد تجمّع لدينا بإذن الله بيان شامل بطريقة القرآن في مُعالجة الموضوع بتمامه.

Marfat.com

١) الشّرْك

كان المشركون يعبدون آلهة شتى في صور أصنام، أو يعبدون الملائكة أو يعبدون الجنّ، ويزعمون أنها تشفع عند الله فيستجيب الله لشفاعتها ! أي أنهم يتوسلون بها إلى الله كما حكى عنهم القرآن: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ (سورة الزّمُر: الآية ٣) فبيَّنَ القرآن حقيقة الأمر في هذا الشأن بطريقين:

الطريق الأول: بيان أن الله وحده هو الخالق المدبِّر لهذا الكون، فلا هو في حاجة إلى معونة من أحد على الاطلاق في تدبير الأمر، ولا هُناك من يقوم أصلاً بالتدخل في أمر الله ! فما دام لا يوجد أحد يُشارك الله في الخلق ـ وهو أمر لا يجادل فيه أحد حتى من المشركين ـ فكيف يوجد من يُشاركه في التدبير ؟ ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ (سورة الأعراف: الآية ٥٤).

والطريق الثاني: بيان عجز أولئك الشركاء عن أن يملكوا لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا. فكيف ينفعون غيرهم أو يضرونهم ؟! وأحيانًا يجتمع الطريقان معًا في الآية الواحدة أو مجموعة الآيات، وأحيانًا يختص السياق بواحد من الطريقين.

« أ » فمن أمثلة الطريق الأول (وإن كان يحوي إشارة إلى الطريق الآخر).

١) ﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ (سورة النحل: الآيات ٦٥ ـ ٧٣).

Marfat.com

فهنا عرض مستفيض لآيات من آيات الله في الخلق وفي الرزق معًا في سياق واحد. فآية في المـاء النازل من السماء بقدرة الله يحيي الأرض بعد موتها وينبت فيها الزرع. وآية في الأنعام يخرج الله من بطونها لبنًا خالصًا سائغًا للشاربين. ومن أين يخرج هذا اللبن؟ من بين فرث ودم. والفرث هو بقايا الغذاء المهضوم في الأمعاء. وتحوّل العصارات الهضمية إلى دم، ومرور هذا الدم على أعضاء الجسم المختلفة يعطي كل واحد منها غذاءه، ثم قيام كل عضو بوظيفته بعد أن يتلقى غذاءه من الدم، وقيام الغدد اللبنية في الضرع بإفراز اللبن، أو بعبارة أُخرى تحوّل الفرث إلى دم ثم تحوّله إلى لبن: كل ذلك من آيات الله المعجزة في الخلق[1]، وهو كذلك من آيات الله في الرزق الذي مَنَّ بـه على الإنسان. وآية في النحل التي تأكل من رحيق الزهور وتخرج منه هـذا الغذاء العجيب الذي لا تنحصر فائدته في خواصه الغذائية فحسب، بل هو شفاء لكثير من الأمراض. وهي كذلك آية في الخلق وفي الرزق في ذات الوقت. وآية في خلق البشر واختلاف أعمـارهم. ثم إشارة إلى وضع كان قائماً يومئذ عند العرب وهو وجود أرقّاء بين أيديهم، يستخدمه القرآن لتقريب القضية إلى أذهان المخاطبين بـه يومئذ، فيقول إن الله فضَّل بعضهم على بعض في الرزق فجعل بعضهم سادة وبعضهم عبيدًا، فهل يَقْبل السادة المُفضَّلين أن يشركوا معهم عبيدهم في السيادة والسلطة فيصبحوا سَواءً هُـمْ وعبيدهم؟ فإذا كانوا لا يقبلون ذلك لأنفسهم فلمـاذا يقبلونه بالقيـاس إلى الله سبحانه وتعالى فيشركون معه عبادًا من عباده فيجعلونهم آلهة مع الله؟ ثم يعود إلى آية أُخرى في الخلق والرزق فيشير إلى أن الله جعل لكم من أنفسكم ـ أي من جنسكم ـ أزواجًا وجعل لكم عن طريق الزواج بنين وحَفَدَة، ورزقكم من كل الطيبات.. أفتكون نتيجة ذلك كله الكفر بدلاً من

---

(١) لم تكن الأسرار العلمية الخاصة بتحوُّل الفرث إلى دم ثم تحوّله في الضرع إلى لبن معلومة للبشرية كلها وقت نزول القرآن. وإنمـا اكتُشِفَ ذلك كلّه من عهد قريب. وفي ذلك دليلٌ لمن أراد الدليل على أن هذا القرآن من وحي الله، فما كان لبشر من علـم يومئذٍ بهذه الأشياء.

Marfat.com

الشكر ؟ والكفر الذي يمارسونه هو الموضح في الآية الأخيرة : ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقًا من السماوات والأرض شيئًا ولا يستطيعون ﴾.

وتبدو هذه العبادة شيئًا مُنْكَرًا بعد عرض هذه الآيات كلها على الوجدان والعقل. ويبدو الذين يمارسونها قومًا ناقصي الآدمية، لأنهم يؤمنون بالباطل على غير أساس، ويجحدون الحق بغير برهان.

٢) ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (سورة النمل : الآيات ٥٩ ـ ٦٤)

(وقد سبق شرحه في الفصل السابق).

٣) ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ ﴾ (سورة الحج : الآية ٧٣).

«ب» ومن أمثلة الطريق الثاني :

١) ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۖ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا ۖ وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ ﴾ (سورة الأعراف : الآيات ١٩١ ـ ١٩٨).

Marfat.com

الآية الأولى بسؤال يوضح مفرق الطريق. فالإله الذي ينبغي أن يؤمن بـه الإنسان ويعبده هو الإله الخالق. فما بال هؤلاء المشركين يشركون آلهة لا تخلق شيئًا وهي ذاتها مخلوقة، يصنعها الناس بأيديهم ثم يجعلونها آلهة؟ (والإشارات كلها هنا إلى الأصنام). هل في ذلك منطق يقبله العقل أو تقبله فطرة سوية؟

ثم يستطرد السياق فيشرح حال هذه الأصنام التي يعبدها المشركون، فهي لا تستطيع نصر أنفسها إذا اعتدى عليها معتد فضلاً عن أن تنصر غيرها! وهي لا تسمع لو دعاها أحـد، فسواء عليك حدّثتها أم لم تحدّثها فالنتيجة واحدة!

ثم يقرر السياق حقيقة تشمل كل معبود من دون الله: ﴿ إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ﴾ ومع أن الإشارة ما زالت خاصة بالأصنام السابق ذكرها إلا أن هـذا الوصف يدخل فيه كل مَنْ يَعْبُد وكل ما يُعْبَد مِنْ دون الله، سَواء كانوا أشخاصًا من البشر أحياء أو أمواتًا، أو كانوا من الجِنّ أو الملائكة، أو كانوا شَجَرًا أو حجرا أو شمسًا أو نجماً أو كوكبًا من الكواكب. كلهم مخلوقات من مخلوقات الله، ومن ثم فهم عباد لله: ﴿ عباد أمثالكم ﴾ فلا ينبغي التوجه إليهم بالعبادة أو الدعاء.

ويستمر السياق في وصف تلك الأصنام المشار إليها في الآيات: هل لهـا أرجُل أو أيد أو أعيُـن أو آذان، لتمشي أو تبطش أو تبصر أو تسمع؟ فلأي شيء يا تُرى يعبُدها أولئك العابدون، وهم يرونها أمام أعينهم بهذا العجز المُزري؟!

ثم يَتوجَّه الخطاب إلى الرسول صلى الله عليه وسلّـم أن يتحدّاهم أن يضرّوه بأصنامهم تلك ـ وقد كانوا يهُدِّدون الرسول صلى الله عليه وسلّـم بأن تلك الآلهة المزعومة ستصيبه بالضرر نتيجة مهاجمته إياها! ـ فيقول الله تعالى له: قُلْ لهم: هلمُّوا كيدوا كيدكم الذي تهدِّدون به، ولا تتأخروا (لا تنظروني) وأروني ماذا تستطيع آلهتكـم أن تصنع! إن الله هو الذي يتولاني وهو يتولى المؤمنين الصالحين ويحميهم ويرعاهم، أمَّا آلهتكـم تلك فلا تستطيع أن تنصركم إن أراد الله بكم ضرًّا ولا تستطيع

Marfat.com

حتى أن تنصر نفسها، وهي لا تسمع ولا تبصر. فهي لا تستحق العبادة ولا الدعاء.

٢) ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝١ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ۝٢ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴾

(سورة الفُرقان: الآيات ١ ـ ٣).

٣) ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝٥ ﴾

(سورة الأحقاف: الآية ٥).

٢) ادِّعـاء الولد لله

يشترك في هذه الضلالة اليهود والنصارى ومشركو العرب، وهي ضلالة واحدة وإن اختلفت صورها. فاليهود يقولون: عُزير ابن الله، والنصارى تقول: المسيح ابن الله، ومشركو العرب كانوا يقولون: الملائكة بنات الله.

والقرآن يَتَناول هذه الضلالة فيفنِّدها على نحو يُماثل ما يفنَّد به ضلالة الشرك، لأنهـا شرك في الحقيقة وإن اتخذت صورة محدَّدة، هي نسبة الولد لله سبحانه وتعالى.

١) ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٩٥ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝٩٦ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٩٧ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ۝٩٨ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٩٩ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٠٠ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝١٠١ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۝١٠٢ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ۝١٠٣ ﴾ (سورة الأنعام: الآيات ٩٥ ـ ١٠٣).

Marfat.com

هذا النصّ الشامل يُناقِش قضية البنوَّة عامّة، ويدخل فيه كل مَن يدَّعي لله ولداً[1]: ﴿ وخرقوا له بنين وبنات بغير علـم ﴾ وهو يبدأ بعرض رائع لآيات الله في الكون، يشمل مجالات واسعة من السماوات والأرض والإنسان والنبات، تملأ الوجدان بحقيقة الأُلوهيّة، وتعرف الناس بربهم الحق، بحيث تبدو ضلالة المُضلِّين بعدها غير ذات معنى، وغير ذات موضوع.

تبدأ الآيات بتقرير أن الله هو الذي يفلق الحَبَّ والنَّوى ليخرج منه أنواع الزرع المختلفة. وهو حقيقة يغفل عنها الناس أحيانًا فيحسبون أن الزرع ينبت من تلقاء نفسه، وما عليك إلا أن تبذر البذرة في الأرض وتريها بالماء! نعم إنك تصنع ذلك، ولكن مَنِ الذي يفلق الحَبَّة أو النَّواة في باطن الأرض ليخرج منها النبتة الصغيرة التي تظل تنمو حتى تُثْمِر؟ أليس هو الله الخالق سبحانه؟ أليس هو الذي أودع فيها خصائص النمو؟ أوليس هو الذي يأذن لكل حبَّة بذاتها أن تنمو.. وإلاّ فلا نَماء ولا إنْبات؟!

والله هو الذي يخرج الحيّ من الميِّت (كما ينبت الزرع من الأرض المجُدبة) ويخرج الميِّت من الحيّ (بعد أن تنتهي دَوْرَة الحياة في الكائن الحيّ فيموت) وكِلاهُما يتـمّ بقَدَر من الله.

ويجيء التعقيب بعد ذلك: ﴿ ذلكم الله فأنى تؤفكون ﴾؟

ذلك هو الله الحق. الذي ينبت الزرع ويحيي ويميت. وهذه مجالات من مجالات قدرته. فهل من الشركاء من يفعل شيئًا من ذلك؟ فأنى تصرفون عن الحق وتتعاطون الإفك؟

وإذا كانت الجولة الأُولى في الحَبّ والنَّوى، والحيّ والميّت على الأرض، فالجولة الثانية في الأفلاك:

﴿ فالق الأصباح وجعل الليل سكنًا والشمس والقمر حسبانًا. ذلك تقدير

---

(١) الولد في اللغة بمعنى المولود فيشمل البنين والبنات.

Marfat.com

العزيز العليـم ﴾.

إنَّ اللهَ فالق الحَبّ والنَّوى هو كذلك فالق الأصباح، أي مخرج الصبح من باطن الظلمة، كمـا تخرج النبتة المُشرقة من باطن الأرض المظلـم[1]. وهو الذي جعل الليل سكنًا. فـمِنْ حكمته سبحانه أن جعل عامّة الكائنات الحية التي خلقها تنشط للنور في النهار وتسكن للظلمة في الليل[2]. وبمناسبة الحديث عن النهار والليل يأتي الحديث عن الشمس والقمر فيقول: ﴿ والشَّمس حسبانًا ﴾ أي أن الله جعل الشمس والقمر حسبانًا، وتحسب بهمـا الأيّام والشهور والسنين كمـا أنهمـا هما ذاتهمـا لكل منهمـا دورة محسوبة بالحساب الرَبّاني الدقيق الذي لا يختلّ قيد شعرة ﴿ ذلك العزيز العليـم ﴾، وبسبب هذا الانضباط الدقيق يحسب بهمـا الإنسان الوقت، ويتعلَّـم الإنسان الدقة من دِقَّة الكون من حوله!

﴿ وهو الذي جعل لكم بهـا في ظلمـات البر والبحر ﴾ فتعرفوا بها اتجاهكم في ظلمة الليل حيث لا نور ولا دليل.

﴿ قد فصّلنا الآيات لقوم يعلمون ﴾ وأي إنسان يطلع على هذه الآيات ويعلـم دلالتها لابُدَّ أن يهتدي إلى الله الواحد الذي لا ينبغي له شريك.

ثم هذه جولة ثالثة في محيط الإنسان:

﴿ وهو الذي من نفس واحدة ﴾ من آدم الذي خلقه الله من تُراب، ثم جعل منه زوجه حوّاء.

﴿ فمستقر ومستودع ﴾ إذ جعل الله النسل بعد ذلك يأتي بالتزاوج، الذي يتـمّ فيه التقاء الخليّة المذكَّرة المستقرة في صُلْبِ الرَّجُل بالخليّة المؤنّثة في مستودعها بالرحْم.

---

(١) تأمل روعة الأُسلوب القرآني وبلاغته الأخاذة.

(٢) هناك من خلق الله كائنات تنشط في الليل وتسكن في النهار ولكن الإشارة هنا للإنسان خاصة ثم لمعظم الكائنات.

Marfat.com

﴿ قد فصَّلنا الآيات لقوم يفقهون ﴾ فالأمر في حاجة إلى تدبُّر واعٍ يدرك هذه المُعجزة فيدرك عظمة الصانع الحكيم.

وهذه الجولة الأخيرة في عالم النَّبات:

﴿ وهو الذي أنزل من السماءِ به نبات كل شيء ﴾ فالنبات كله يحتاج إلى الماء، ولا يخرج من الأرض بغير ريّ.

ثم يأخذ السياق في التفصيل بعد الإجمال:

﴿ فأخرجنا منه خضرًا نخرج منه حبًّا متراكبًا، ومن النخل من طلعها قنوان دانية، وجنات مِن أعناب، والزيتون والرمان مشتبهًا وغير متشابه ﴾.

فهذا هو النبات كله يخرج أخضر طريًّا في مبدأ الأمر ثم يأخذ طريقه في النمو، فيخرج منه الحب المتراكب (مثل سنابل القمح والشعير وغيرها) ويخرج منه النخل بأنواعه والأعناب والزيتون والرمان، مختلف الأشكال والألوان والروائح والمذاقات. بل إن كل نوع من هذه الأنواع تجد في ثماره المتشابه وغير المتشابه..

وحين يتملى الإنسان بخياله هذه اللوحة الجميلة الممتلئة بأشكال النبات المختلفة، فإن وجدانه ينفعل بها، ويحب أن يتأمل فيها ويشبع نظره منها..

والسياق القرآني بالفعل يدعوه إلى ذلك!

إنه هنا لا يدعوه إلى الأكل منها! ففي مكان آخر من السورة يذكر الأكل:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾

(سورة الأنعام: الآية ١٤١).

ولكنه هنا في هذا السياق لا يأمر بالأكل ولا يوجه إليه، إنما يوجه إلى شيء آخر:

﴿ انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ﴾.

انظروا إلى هذا الجمال البديع الذي أخرجته يد الصانع المبدع..

املأوا وجدانكم ومشاعركم بهذا الجمال، ثم تدبروا.. فماذا تجدون في هذا المنظر

Marfat.com

الرائع الأخّاذ؟

﴿ إن في ذلكم لقوم يؤمنون ﴾ فكل من ينظر ويتدبر يجد الآيات التي تهديه إلى الإيمان.

وهنا، والوجدان في قمة تأثره، يعرض السياق ضلالة المشركين فتبدو ـ بعد هذه الآيات كلها ـ سخفًا لا معنى له وأمرًا تشمئز منه النفس ولا تسيغه:

﴿ وجعلوا له الجن وخلقهم ﴾ فهم من خلقه، ومع ذلك فهؤلاء المشركون يجعلونهم شركاء له!

﴿ وخرقوا له بنين وبنات بغير علم ﴾ اختلقوا بنين وبنات نسبوهم إلى الله بغير علم.. وأي علم هذا الذي ينتج هذه الأضاليل!؟

﴿ سبحانه وتعالى عمّا يصفون ﴾.

﴿ بديع السماوات والأرض ﴾ الذي أبدعها على غير مثال.

﴿ أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم ﴾.

يناقشهم بمنطقهم: كيف يكون له ولد وليست له زوجة؟ وقد نسوا ـ وهم يلفقون هذه الأبناء والبنات لله ـ نسوا أن يلفقوا له زوجة كذلك لتلد هؤلاء البنين والبنات!

ثم إنه سبحانه وتعالى هو خالق كل شيء ـ وهم يقرون بذلك ـ فأي شيء يدعو الخالق أن يتخذ بنين وبنات؟ ما حاجته إليهم وهو الذي يقول للشيء كن فيكون، وهو صانع هذه الآيات المعروضة في السماوات والأرض.. ﴿ وهو بكل شيء عليم ﴾؟

ثم يجيء التعقيب الأخير بعد عرض آيات الخلق، ومناقشة الضالين في ضلالتهم، يحسم الأمر كله:

﴿ ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه، وهو على كل شيء وكيل ﴾.

Marfat.com

ذلكم .. الخالق الذي رأيتم آيات خلقه.. هو ربكم الذي لا إله إلا هو.. فاعبدوه وحده مخلصين له الدين، لا تشركوا به شريكًا من ولد مزعوم أو آلهة مدعاة.. وهو المسيطر المتصرف في كل شيء: ﴿ وهو على كل شيء وكيل ﴾.

﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾.

لا تراه الأبصار في الدنيا، بينما يرى هو سبحانه كل الأبصار من عليائه، وهو اللطيف الخبير بخلقه وما يدور في نفوسهم من أفكار ومشاعر، سواء منهم المهتدي والممعن في الضلال.

٢) ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴾

(سورة مريم: الآيات ٨٨ـ٩٥).

٣) إنكار البعث

كان من أشد ضلالات العرب في الجاهلية إنكارهم على الله أنه يستطيع أن يبعث الموتى بعد أن ماتوا وتحولوا إلى تراب! وبلغ بهم الأمر في التكذيب أنهم كانوا يعجّبون من الرسول صلى الله عليه وسلّم حين يحدّثهم بأمر البعث حتى روى القرآن عنهم: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ ﴾ (سورة سبأ: الآيتان ٧ـ٨).

وكان القرآن يُعالج هذا الأمر بتعريفهم بقدرة الله الخالق، التي لا تنتهي عند حد، ولا يعجزها شيء في السماوات والأرض، وأن الذي خلق الخلق أول مرة من العدم قادر على أن يعيد خلقه مرة أُخرى، ثم يريهم من آيات الأحياء حولهم ما يلفت نظرهم إلى عملية إخراج الحي من الميت معروضة أمامهم في كل لحظة. والذي

Marfat.com

يستطيع أن يخرج الحي من الميت يستطيع حين يشاء أن يبعث الموتى ويردهم إلى الحياة :

١) ﴿ قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ ءَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ (سورة ق : الآيات ١٠ ـ ١٥) .

تعرض الآيات مجالات القدرة الإلهية المعجزة التي تخلق وتحيي الموات ، فيبدو إنكار البعث بعدها تفاهة في الفكر وسخافة في العقل ، لا تصدر عن إنسان سَوِيّ التفكير .

تبدأُ الآية الأُولى بذكر القرآن المنزل من الله على رسوله صلى الله عليه وسلّم يدعو إلى الهدى . ولكن الكافرين الذين نزل القرآن لهدايتهم عجبوا حين جاءهم المنذر صلى الله عليه وسلّم يحدثهم عن البعث فقالوا : ﴿ هذا شيء عجيب ﴾ . وموضع العجب عندهم أنهم لا يتصورون أن الله يقدر على بعثهم بعد أن يصيروا ترابًا فيقولون : ﴿ هذا رجع بعيد ﴾ .

ثم تقرر الآيات أن الله العليم سبحانه يعلم كل من يموت منهم فلا يضيع منهم أحد خارج علم الله ، وأن عنده سبحانه كتابًا مسجلاً فيه كل شيء . وذلك ردًّا على توهّمهم أنهم إذا ضاعوا في الأرض وأصبحوا ترابًا فقد ضاع كل أثر لهم على الاطلاق ! فهم يحسبون أنه ما دام قد ضاع منهم هم فقد ضاع من الله أيضًا ولم يعد الله قادرًا على الإتيان به فضلاً عن بعثه من جديد !

ثم يلفت السياق نظرهم إلى آيات الخلق من فوقهم ومن حولهم . فهذه السماء

Marfat.com

الضخمة وهذه الأرض الممتدة إلى آخر مدى النظر وما فيها من جبال وزروع...

ثم يُعَدِّد الآيات الدّالّة على قُدرة الله على الإنشاء والإحياء. فمن الماء النازل تنبت في الأرض جنّات من الفاكهة وزروع تنتج الحَبّ والنخيل الباسقات وكلها رزق للعباد. وبالمطر يحيي الله الأرض الموات المجدبة. وبالكيفية ذاتها يحيي الموتى. ويخرجهم من الأرض كما يخرج النبات الزرع. إن عملية الإحياء واحدة في الحالين، والذي يقدر على الأُولى يقدر على الثانية، ولكن البشر المطموسي البصيرة لا يدركون هذه الحقيقة، فيسلمون بالأُولى ولا يسلمون بالثانية.

ويذكر السياق أنهم ليسوا وحدهم الذين يكذبون بالبعث. فقد كذبت قبلهم جاهليات كثيرة يُعَدِّد منهم السياق قوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعاداً وفرعون واخوان لوط وأصحاب الأيكة (قوم شعيب) وقوم تبع. ثم يقدم النذير للعرب المنكرين: إن هؤلاء الأقوام كلهم كذبوا فدمَّر الله عليهم وحقق فيهم وعيده. وهؤلاء إن أصروا على تكذيبهم فليس لهم عند الله إلا ذات المصير.

ويختتم السياق بهذا السؤال الذي يُقرِّر الحقيقة: ﴿ أفعيينا بالخلق الأول ﴾؟ لقد خلق الله الكون كله من قبل، وهاهم أولاء يرون الكون متماسكًا أمامهم مما يدل على عظمة الخالق وقدرته، فعلى أي أساس يشكُّون في قدرته على البعث؟!

٢) ﴿ المر تلك آيات الكتاب والذي أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ① الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون ② وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ③ وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ④ وإن تعجب فعجب قولهم أإذا كنا ترابا أإنا لفي خلق جديد أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال في أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ⑤ ﴾

(سورة الرّعد: الآيات ١ ـ ٥).

Marfat.com

٣) ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣) ﴾ (سورة يس: الآيات ٧٧ ـ ٨٣).

Marfat.com

تثبيت الإيمان

لا ينتهي دَوْر القرآن مع النفْس البشرية عند بيان العقيدة السليمة ومناقشة الانحرافات التي تقع فيها الجاهلية بشأن حقيقة الأُلوهية والربوبية، إنما يخطو خطوة أُخرى ليصل إلى تثبيت تلك العقيدة الصحيحة، وتركيز الإيمان بالله الواحد المنزه عن الشريك.

ووسيلته الكُبرى إلى ذلك هي التذكير: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ (سورة الذاريات: آية ٥٥).

التذكير الدائم بعظمة الله التي لا تحد، وآيات قدرته في الآفاق والأنفس حتى يخشع القلب ويستسلم لله.

والتذكير الدائم بأن الله مع الإنسان يراه ويراقبه ويحصي عليه أعماله، ثم يحاسبه عليها يوم القيامة، حتى تصبح تقوى الله جزءًا لا يتجزأ من مشاعر القلب، وركيزة ثابتة في الضمير.

وكذلك يوجه القرآن القلب البشري إلى ذكر الله دائماً في حالة السراء والضراء، ففي السراء يذكر الله شاكرًا لأنعمه، وفي الضراء يذكر الله صابرًا ومتطلعًا إليه سبحانه ليكشف عنه السوء.

ثم يورد القرآن القصص التي تثبّت الإيمان، قصص الأنبياء وأتباعهم من المؤمنين الذين صبروا على الأذى حتى جاءهم نصر الله، وقصص الكفّار الذين كذبوا وعاندوا حتى دمّر الله عليهم بكفرهم.

وأخيرًا يرسم القرآن صورًا محببة للمؤمنين وصفاتهم، وما ينتظرهم من الجزاء في الآخرة مخلدين في الجنات، وصورًا كريهة مُنفرة للكافرين وصفاتهم وما ينالهم من العذاب يوم القيامة.

ويظل القرآن يُكرِّر هذه التوجيهات حتى ترسخ في النفْس، وحتى يصبح الله

Marfat.com

حاضرًا في القلب لا يغفل الإنسان عن ذكره، فتستقيم مشاعره، ويستقيم سلوكه، ويصبح عبدًا ربّانيًا مُقربًا إلى الله في الدنيا والآخرة، فيرزقه الله الطمأنينة والسعادة في الدنيا، ويمنحه في الآخرة جنته ورضوانه.

وفيما يلي نستعرض نماذج من آيات الكتاب الكريم كما فعلنا في الفصول السابقة من الكتاب.

١) التذكير بعظمة الله وآيات قدرته في الآفاق والأنفُس

سبق لنا أن ذكرنا نماذج من الآيات في الفصول السابقة كلها تتحدّث عن عظمة لله التي لا تحد، وقدرته التي لا يعجزها شيء في السماوات ولا في الأرض. وبيّنّا أن القرآن يستخدم آيات الله في الكون حين يخاطب الوجدان، وحين يخاطب العقل، وحين يرد على دعاوى المبطلين سواء في الشرك أو في ادعاء الولد أو في إنكار البعث أو إنكار وجود الله، إن وُجِدَ في الأرض مَن ينكُر وجود الله!

وقد كانت النماذج السابقة كلها تكفينا لبيان اهتمام القرآن بإبراز هذه الآيات، لتوضيح العقيدة السليمة وتركيزها في النفس كذلك.

ولكن كثرة النماذج في القرآن الكريم تجعلنا لا نكتفي بما سردناه منها من قبل، على كثرته، بل نضيف إليه نماذج جديدة، تستطيع أن تراجعها على ضوء الأمثلة المشروحة في الكتاب من قبل. ولكن ينبغي أن نعرف أن القرآن لا يعرض هذه الآيات لكي تكون مجرد معلومات تستقر في ذهن الإنسان وينتهي بها الأمر هناك، وإنما يريد الله سبحانه وتعالى من التذكير المستمر في القرآن بآياته في الأنفُس والآفاق أن تؤثر هذه الحقائق في القلب البشري تأثيرًا دائماً لا ينتهي عند لحظة التأمل العارضة، بل يظل في القلب ويستقر فيه، حتى يتحوّل الإيمان بالله إلى حقيقة راكزة في نفس الإنسان، تنعكس في سلوكه الواقعي.

Marfat.com

فما قيمة أن أعرف أن الله خلق السماوات والأرض، وأن له آيات معجزة في كل شيء خلقه، ثم ينصرف قلبي بعد ذلك عن ذكر الله، وينصرف عن طاعته فيما أمر به وما نهى عنه؟!

وما قيمة أن أعرف أن الله سبحانه وتعالى واحد لا شريك له، وأنه خلق الكون بقدرته، وأبدع فيه ما أبدع، ثم لا أسأل نفسي حين أقوم بعمل من الأعمال: هل هذا العمل يرضي الله أم لا يرضيه؟!

كلا! لا قيمة إذن لهذه المعرفة!

ولقد كان العرب في الجاهلية يعرفون أن الله هو الذي خلق السماوات والأرض، وهو الذي خلقهم هُم أنفسهم. والقرآن يسجل عليهم ذلك:

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ (سورة لقمان: الآية ٢٥)

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ (سورة الزخرف: الآية ٨٧).

ولكنهم رغم علمهم بهذا لم يكونوا يعبدون الله حق عبادته، وكانوا يشركون به آلهة أُخرى، ويخالفون عن أمره فيما أمر به وما نهى عنه، ولذلك لم تنفعهم معرفتهم شيئًا، وسماهم الله جاهليين، وقال عنهم إنهم لا يعلمون.

إنَّما يُريد الله سبحانه وتعالى من عباده أن يعرفوا عظمته وجلاله ليعبدوه حق عبادته ويطيعوه في سلوكهم الواقعي. ولذلك يظل يذكرهم بآياته في السماء والأرض وفي أنفسهم حتى تخشع قلوبهم، ويستقر فيها الإيمان، ويتحوّل إلى عمل في واقع الأرض.

«أ» آيات الخلق والإبداع في السماوات والأرض:

١) ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ

Marfat.com

كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (٣٧)
وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩)
لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) ﴾

(سورة يس: الآيات ٣٣ ـ ٤٠).

٢) ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ
فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠) وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢١) وَأَرْسَلْنَا
الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢) ﴾

(سورة الحجر: الآيات ١٩ ـ ٢٢).

٣) ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَاللَّهُ
أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا
سُبُلًا فِجَاجًا (٢٠) ﴾ (سورة نوح: الآيات ١٥ ـ ٢٠).

٤) ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ
سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا
وَهَّاجًا (١٣) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (١٦) ﴾

(سورة النبأ: الآيات ٦ ـ ١٦).

٥) ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا
فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٢)

(سورة عيسى: الآيات ٢٤ ـ ٣٢).

٦) ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩)
وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠) ﴾ (سورة: الغاشية: الآيات ١٧ ـ ٢٠).

Marfat.com

«ب» آيات القدرة المعجزة في الأنفُس:

١) ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ (سورة النحل: الآية ٨٧).

٢) ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ ﴾ (سورة الفُرقان: الآية ٥٤).

٣) ﴿ ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (سورة السجدة: الآيات ٦ـ٩).

٤) ﴿ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ (سورة ص: الآيات ٦٧ـ٧٢).

٥) ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ ﴾ (سورة الزمُر: الآية ٦).

٦) ﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ ﴾ (سورة الطارق: الآيات ٥ـ٧).

Marfat.com

«ج» في نعم الله على العباد:

١) ﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ (النحل: الآيات ٥ ـ ٨).

٢) ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾
(سورة المؤمنون: الآيات ١٧ ـ ٢٢).

٣) ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ (سورة الزخرف: ١٠ ـ ١٤).

٤) ﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾
(سورة الجاثية: الآيات ١٢ ـ ١٣).

٥) ﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (سورة الرحمن: »لآيات ١٠ ـ ١٣).

٦) ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾
(سورة الملك: الآية ١٥).

Marfat.com

«د» في تدبير الكون بغير شريك:

١) ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ ﴾ (سورة هود: الآية ٦).

٢) ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ (سورة النور: الآيات ٤٢ ـ ٤٣).

٣) ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ ﴾ (سورة فاطر: الآيات ١١ ـ ١٣).

٤) ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ (١) ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾.

(سورة فُصِّلَت: الآيات ٩ ـ ١٢).

٥) ﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ الرحمن: الآية الرحمن: ٢٩).

٦) ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ المجادلة: الآية المجادلة: ٢١).

---

(١) هذه الأيام الأربعة يدخل فيها اليومان السابقان اللذان خلق الله فيهما الأرض، فتكون بالإضافة إلى اليومين المذكورين في الآية التالية: الخاصين بخلق السماوات ستة أيام في مجموعها.

Marfat.com

«هـ» في تأييد الرسل بالمعجزات :

١) ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ (سورة طه: الآيات ١٧ ـ ٢٤).

٢) ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ﴾ المائدة: الآية ١١٠).

٣) ﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾ ﴾ مريم: الآيات ٧ ـ ٩).

٤) ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ الأنبياء: الآيات ٦٨ ـ ٧٠).

٥) ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ سبأ: الآية ١١).

٦) ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ۖ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ۚ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾ سبأ: الآية ١٢).

Marfat.com

٢) التذكير بمراقبة الله للإنسان

١) ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾ (سورة طه: الآية ٧).

٢) ﴿ وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ﴾ (سورة يونس: الآية ٦١).

٣) ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ ﴾ (سورة لقمان: الآية ١١).

٤) ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٣﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ (سورة سبأ: الآيات ٢ ـ ٥).

٥) ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ (سورة المجادلة: الآية ٧).

٦) ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ (سورة الأعلى: الآية ٧).

٣) توجيه القلب البشري إلى ذكر الله

١) ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ (سورة البقرة: الآية ١٨٦).

Marfat.com

٢) ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾

(سورة الأعراف: الآية ٥٥).

٣) ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة الرعد: الآية ٢٨).

٤) ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ ﴾

(سورة النور: الآيات ٣٦ـ٣٨).

٥) ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ ﴾ (سورة الزمر: الآية ٢٣).

٦) ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ ﴾ (سورة غافر: الآية ٦٠).

٤) قصص الأنبياء

يرد هذا القصص في كثير من سور القرآن وخاصة في سورة الأعراف وسورة يونس وسورة هود وسورة مريم وسورة طٰه وسورة الأنبياء وسورة الشعراء وسورة النمل وسورة القَصَص. ويمكنك مُراجعة هذه السور في المصحف، وستجد قراءتها سهلة ميسّرة. وستجد خاصة في «الأعراف» و«هود» و«الشعراء» أن القرآن يلفت نظرنا إلى أُمور معيَّنة في حياة هؤلاء الأنبياء:

أولاً : أنهم كلهم جاءوا بكلمة واحدة هي «لا إله إلا الله» «اعبدوا الله ما لكم من إله غيره» وهذا يُبيِّن لنا أن أهم شيء يرسل الله الرُّسُل من أجله هو

Marfat.com

تعريف البشر بربهم وخالقهم، ليعرفوا أنه إله واحد وليعبدوه، ولا يشركوا به شيئًا.

ثانيًا : أنهم كلهم قد لقوا التكذيب من قومهم، وتعرّضوا للاضطهاد والايذاء والتهديد بالقتل أو الطرد، ولكنهم لم يتنازلوا عن رسالتهم، ولم يتخلوا عن دعوتهم وهذا يُبيِّـن لنا أن العقيدة هي أغلى شيء في حياة الإنسان. وأنه مهمـا أوذي في سبيل عقيدته فلا ينبغي له أن يفرّط فيها أو يتساهل في أمرها.

ثالثًا : أنهم حين تعرضوا للتكذيب والاضطهاد لجأوا إلى ربهم، يشكون إليه ما فعله قومهم بهم، ويستغيثون بـه أن يفرّج كربتهم وينجيهم ومَنْ مَعَهُم مِنَ المؤمنين، ولكنهم صبروا على الأذى ولم يغيروا موقفهم. وهذا يُعلّمنا أن المؤمن في موقف الشدَّة يلجأ إلى الله، ويتوجَّه إليه بالدعاء لكي يخلصه من شدته، ولكنه يثبت ويصبر حتى يأتي نصر الله، ولا يضعف ولا ينهار.

رابعًا : أن الله كان دائماً ينصر رُسُله والذين آمنوا في نهاية الأمر، بعد أن يصبروا على الشدائد ويحافظوا على عقيدتهم ولا يتخلوا عنها أبدًا. وهذا يُعلّمنا ألاّ نقنط من رحمة الله أبدًا مهما اشتد بنا الضيق، ونتطلع إلى الله دائماً أن يرفع عنا الكرب ما دمنا محافظين على صلتنا بالله، مستقيمين على أمره، مهتدين بهداه.

خامسًا : وفي القصص عبرة أُخرى كذلك هي أن أهل الباطل مهما بدا في وقت من الأوقات أنهم متمكنون في الأرض ومسيطرون فإن الله يملي لهم ولكنه لا يفلتهم من عقـابه في الدنيا ولا في الآخرة. كمـا يقول الرسول صلى الله عليه وسلّـم: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» رواه البخاري عن أبي موسى رضي الله عنه.

وإليك بعض النماذج من القصص القرآني:

Marfat.com

١) ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (سورة الأعراف: الآيات ٥٩ ـ ٦٤).

٢) ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَا قَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ ﴿٦٨﴾ ﴾

(سورة هود: الآيات ٦١ ـ ٦٨).

٣) ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة إبراهيم: الآيات ٩ ـ ١٤).

Marfat.com

٤) ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا
عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾
قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي
فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾
وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ
فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾
يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللّٰهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾
وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِنْ دُونِ اللّٰهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾
وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللّٰهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا
أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾
إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾

(سورة الشعراء: الآيات ٤٩ـ١٠٤).

٥) ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا
مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٣٩﴾
فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا
وَمَا كَانَ اللّٰهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ **العنكبوت: الآيات ٣٨ـ٤٠).**

٦) ﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا
إِلَّا اللّٰهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾
قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللّٰهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ
قَالُوا هٰذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ
كَذٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً
فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللّٰهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾

(سورة الأحقاف: الآيات ٢١ـ٢٦).

Marfat.com

٥) صور المؤمنين والكافرين

يرسم القرآن صورًا وضيئة وجميلة للمؤمنين يعرض فيها خصالهم وأحوالهم، وأثر الإيمان في قلوبهم وسلوكهم، تجعلنا نحبهم ونحب أن نكون منهم، لتنطبق علينا تلك الأوصاف الجميلة، ولنحظى برضاء الله في الدنيا والآخرة.

كما يرسم القرآن في ذات الوقت صورًا منفرة للكافرين وخصالهم وأحوالهم، وأثر بُعْدهم عن الإيمان في قلوبهم وسلوكهم تجعلنا ننفر منهم ونكره أن نكون مثلهم، حتى لا نتعرَّض لمقت الله وغضبه في الدنيا والآخرة.

وهذه الصور والأوصاف كثيرة في القرآن، لأن فيها دروسًا تربوية يربينا بها الله سبحانه وتعالى حتى تستقيم فطرتنا ويستقيم سلوكنا وتنصلح أحوالنا.

وإليك بعض النماذج منها:

١) ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة الرعد: الآيات ١٩ ـ ٢٤).

تبدأ الآيات بمقارنة بين المؤمنين والكافرين يتبيَّن منها لأوَّل وهلة أنهم مفترقون بعضهم عن بعض في صفاتهم ومقومات حياتهم وفكرهم. والقرآن يصف المؤمنين بأنهم هم الذين يعلمون أن ما أنزل إلى الرسول صلى الله عليه وسلّم من ربه هو الحق، بينما يصف الآخرين بأنهم عمي. ثم يسأل هذا السؤال الإنكاري (أي الذي جوابه دائماً: لا): ﴿ أفمن يعلم أن ما أُنزل إليك من كمن هو أعمى ﴾؟ والجواب لا بُدَّ أن يكون لا! فمن يقول إن الأعمى كالبصير، وإن من يعلم كمن لا يعلم؟!

Marfat.com

والتعبير القرآني الجميل يوحي إلينا بأن من يعلـم أن القرآن والوحي حق هو المبصر، الذي يسير في الطريق على نور، ولا يتخبّط في سيره لأنه يرى ما حوله. بينما الذي يشك في الوحي ولا يتبعه هو الأعمى الذي يتخبط في الطريق لأنه لا يراه. وهذه حقيقة. فإن المؤمن يعرف ـ من وحي إيمانه ـ ما هي غايته في الحياة، وما الطريق الذي ينبغي أن يسلكه ليصل إلى غايته. فغايته هي إرضاء الله سبحانه وتعالى والتقرب إليه، ووسيلته هي الأعمـال الصالحة. هي الطاعة لأوامر الله. بينما الكافر لا يعرف لمـاذا يعيش، إلا لإرضاء ملذاته القريبة، غافلاً عن النهاية التي تنتظره في آخر الطريق.

ثم يجيء التعقيب في نهاية الآية: ﴿ إنما يتذكّر أولو الألباب ﴾ فالذين لهم عقول هم الذين يتذكّرون، وغيرهم لا يتذكّر ولا يعتبر. والتعبير القرآني يوحي إلينا مرة أُخرى أن الكافر ليس من أولي الألباب، أي ليس له عقل. ذلك لأنه لا يفكّر بهذا العقل الذي وهبه له الله ليفكر ويتدبر، ويعرف عن طريق تدبره حقيقة الأُلوهية والربوبية.

﴿ إنما يتذكّر أولو الألباب الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ﴾.

وأولو الألباب هم الذين وصفتهم الآية بأنهم هم الذين يعلمون أن ما أنزل على الرسول صلى الله عليه وسلّـم هو الحق. ولكن الآية الثانية تبيِّـن لنا حقيقة عظيمة ينبغي لنا أن نتدبرها.

هل المطلوب من الإنسان هو أن «يعلـم» مجرد علـم بأن القرآن حق؟ فقط؟! وهل يكفي هذا عند الله؟

إن الآية الثانية وما بعدهـا تبيِّـن لنا أثر هذا العلـم في حياة الإنسان وسلوكه وتفكيره وشعوره. فهؤلاء الذين علموا أن القرآن حق يصفهم الله سبحانه وتعالى بأنهم ﴿ يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ﴾.

إذن فليس المطلوب هو مجرّد «العلـم»! بل إن هذا العلـم ينبغي أن يُـحْدِثَ آثاره في حيـاة الإنسان، وإلاّ أصبح بلا معنى، وأصبح وجوده وعدمه سواء.

Marfat.com

إن الصفة الكبرى التي يتصف بهـا أولئك العالمون بأن القرآن حق هي أنهم يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق. ولا تحدد الآية عهدًا معينًا ولا ميثاقًا معينًا، إنمـا تشمل كل عهد وكل ميثاق مع الله. والعهد الأكبر هو الذي أودعه الله في الفطرة وأشهد الفطرة عليه، وهو عبادة الله الواحد بلا شريك:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا ﴾

(سورة الأعراف: الآية ١٧٢).

وكذلك العهد الذي تذكره سورة يَس:

﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾ (سورة يَس: الآيتان ٦٠ـ٦١).

ولا تنتهي صفة المؤمنين بأنهم هم الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق، بل يستمر السياق فيصفهم بأوصاف جميلة أُخرى:

﴿ والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ﴾.

﴿ يصلون ما أمر الله به أن يوصل ﴾ أي: يصلون كل ما أمر الله به أن يوصل، لأن «ما» تفيد العموم. والتعبير باطلاقه هكذا دون تحديد يشمل كل شيء أمر الله بوصله. وفي مقدمة كل شيء صلة الإنسان بربه بطبيعة الحال، فهذه أول صلة أمر الله بها أن توصل: صلة العبادة الحقة لله. ويأتي بعدها صلات الإنسان بوالديه، وصلاته بذوي قرباه، وصلاته بالمسلمين جميعًا يحب لهم الخير، ويحب لهم كمـا يحب لنفسه. وهكذا يشمل هذا التعبير الموجز كثيرًا من تصرفات الإنسان.

ومع القيام بهذه الصلات التي أمر الله بوصلها فهم يخشون ربه، وهذه الخشية تجعلهم يتصرفون في أُمورهم بمـا يرضي الله، فيتعاملون بالصدق والأمانة والإخلاص، خشية أن يغضب الله عليهم. وكذلك يخافون سوء الحساب، فيتجنبون الاعمـال والأقوال التي تعرضهم للحساب الشديد.

Marfat.com

﴿ والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم ﴾.

فهم يصبرون على الشدائد لأنهم يبتغون وجه الله، ويتطلعون إليه بالرجاء، ولكنهم صابرون، لأنهم يعلمون أن ما أصابهم هو قدر من الله، فيرضون به تقربًا لله وتحببًا إليه ليرضى عنهم.

﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ وإقامة الصلاة تقتضي توفية كل أركانها، وأدائها بالوقار والخشوع اللازم لها.

﴿ وأنفقوا مما سرًا وعلانية ﴾ فهم لا يبخلون بأموالهم، وكذلك لا ينفقونها رياء وإنما ينفقونها لوجه الله في السرّ والعلانية.

﴿ ويدرؤن بالحسنة السيئة ﴾ يتلقون السيئة ويردون عليها بالحسنة نُبلاً منهم وترفُعًا، وتقربًا إلى الله، لا ضعفًا ولا استخذاءً، وإنما كما يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ (سورة آل عمران: الآية ١٣٤).

وهكذا رأينا أن أولي الألباب، الذين يعلمون أن القرآن حق، يتصفون بكل هذه الصفات النبيلة الرائعة. تصرُّفاتهم نظيفة. مَشاعِرهم نظيفة. كل سلوكهم جميل. لماذا؟ لأنهم عرفوا الحق. وهذه هي المعرفة التي يريدها الله من عباده. فحين يعرفون حقيقة الأُلوهية ينعكس ذلك على سلوكهم فيصبح على هذه الصورة الرفيعة المحبوبة التي يحبها الله ويحبها الناس.

وما جزاؤهم على ذلك كله!

﴿ أولئك لهم الدار ﴾ لهم العاقبة الحسنة في الدار الآخرة:

﴿ جنّات يدخلونها ﴾ ويا لها من جائزة جميلة على السلوك الجميل!

ولكن الله يتفضل عليهم بأكثر من ذلك!

﴿ جنّات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ﴾.

فهم لا يدخلون وحدهم، ولكن يدخل معهم الأشخاص الذين يحبونهم من آباء

Marfat.com

وأزواج وذرية. فيالها من مُتعة: مُتعة الصحبة في جنّات النعيم، جزاء الاستقامة على أمر الله.

وهل ينتهي الأمر عند ذلك؟ كلاّ! إن فضل الله يشملهم بأكثر من ذلك!

أرأيت حين تكون ضيفًا عند أحد الناس، فيدخل من باب الحجرة فيحيِّيك. أليس ذلك يسرُّ قلبك ويشعرك بالحفاوة والتكريم؟ وإذا كرَّر الدخول عليك بالتحيّة؟ ألا يسرّك ذلك أكثر؟ وإذا كان أهل البيت كلهم يجيئون إليك ويظهرون حفاوتهم بك فكيف يكون شعورك؟ ألا تحسّ بالسعادة والرُضى والارتياح؟

إن الله يحتفي بك في الجنَّة، فيرسل ملائكته يحيُّونك!

﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ﴾.

يدخلون عليهم بالتحيّة والحفاوة والتكريم، يقولون:

﴿ سلام عليكم بما صبرتم، فنعم عُقْبى الدّار ﴾!

ألا يروقك هذا النعيم؟ ألا تحبّ أن تكون واحدًا من هؤلاء الذين يكرمهم الله هذا التكريم؟

بلى ولا شك!

والآن قارن حال الفريق الآخر، الذي رفض الهدى وأصرّ على أن يكون أعمى لا يبصر. إنه يمثِّل الصورة المُقابلة تمامًا في كل شيء!

﴿ والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، ويقطعون ما أمر الله به أن يُوصل، ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴾!

فمن أيِّ الفريقين تحب أن تكون، بعد أن رأيت مصير هؤلاء ومصير هؤلاء؟!

٢) ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ

Marfat.com

الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ ﴾ (الفرقان: الآيات ٦٣ ـ ٧٦).

٣) ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾

(سورة الذاريات: الآيات ١٥ ـ ١٩).

• • •

بهذه الوسائل كلها يصل القرآن إلى تثبيت الإيمان في القلب البشري.ق فحين يحسّ الإنسان بوجود الله معه في كل لحظة..

حين يحس بآيات القدرة في كل شيء في الكون من حوله، وفي ذات نفسه..

حين يحس أن ماضي البشرية كله كان يهيمن عليه قدر الله وتدبيره.. وأن الحاضر كذلك والمستقبل..

حين يحس أن الدنيا كلها ملك لله، والآخرة كذلك..

حين يحس أن أعماله كلها محسوبة عليه، وسيحاسب عليها..

حين يرى صور الرسل الكرام وصبرهم وتضحياتهم..

حين يرى صور المؤمنين كريمة نظيفة جذابة، وصور الكافرين قبيحة منفرة..

حينئذ يمتلىء قلبه بخشية الله وتقواه، وبالتطلع في ذات الوقت إلى حبّه ورضاه..

وذلك هو الإيمان الصادق الذي يحبّه الله، ويقرب به عبده إليه، فيصبح واحدًا من أولياء الله، الذين يقول الله عنهم في كتابه الكريم:

﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ (سورة يونس: الآية ٦٢).

Marfat.com

تحكيم شريعة الله

مَرَّ بنا في الفصل السابق ونحن نتحدَّث عن صور المؤمنين والكافرين أن معرفة الحق المنزل من عند الله لا بُدَّ أن يكون لها مقتضىً واقعيٌ في حياة البشر. فهي ليست معرفة تختزن في الذهن، إنما ينبغي أن تتحول إلى سلوك واقعي.

وأول مجال لتطبيق هذه الحقيقة، وأبرز صورة لها، هي تحكيم شريعة الله، والتقيُّد في أُمور الحياة كلها بمنهج الله.

إن شهادة «لا إله إلا الله» هي أول ما نطق به المُسلم، وهي مع تكملتها «محمّد رسول الله» إعلان الدخول في الإسلام.

فما معنى هذه الشهادة، وما مقتضاها؟

معناها أن الشخص الذي ينطق بالشهادة قد أقر بالعبودية لله وحده، فقد أقر بأنه لا يوجد إله إلا الله، أي لا يوجد معبود إلا الله. فمن شأن الإله أن يُعْبَد. وما دام لا يوجد إلا إله واحد هو الله سبحانه وتعالى، فليس هناك إذن من تنبغي له العبادة إلا الله، ولا يجوز التوجه بالعبادة لسواه.

فما معنى العبودية لله؟

تُرى إذا نحن نَطقنا بالشهادة بألسنتنا وحدها ولم نقر بها في قلوبنا نكون قد عبدنا الله؟!

وإذا نحن نطقنا بها بألسنتنا ثم أعلنا ـ بأقوالنا وأفعالنا ـ إن أوامر الله ليست ملزمة لنا، وإن من حقنا أن نخالفها كلها، أو نتخير منها أشياء ننفذها وأشياء أُخرى لا نلتزم بتنفيذها.. هل نكون قد عبدنا الله؟ هل تكون قلوبنا قد أقرَّت بالفعل بالعبودية لله وحده؟

كلا! فالاقرار معناه الالتزام، وإلا فهي كلمة تُقال باللسان، ولا رصيد لها من الواقع!

Marfat.com

وقد أنزل الله شريعة معيَّنة تحتوي أحكام الحلال والحرام، وأمر بتنفيذ هذه الشريعة في واقع الأرض. فإذا جاء إنسان يقول بلسانه «لا إله إلا الله، محمّد رسول الله» ثم يرفض أن يتحاكم إلى شريعة الله، ويضع لنفسه حلالاً غير ما أحل الله، وحرامًا غير ما حرم الله، فما قيمة الكلمة التي يقولها بلسانه؟ هل هي كلمة صادقة؟ وهل تنفعه عند الله؟

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ (سورة آل عمران: الآية ١٩).

والإسلام كما قلنا في أول الكتاب هو إسلام الوجه لله، أي التوجه الكامل إلى الله. والخضوع الكامل لأوامر الله.

التوجه الكامل لله في الاعتقاد، فلا يعتقد أن هناك من يخلق أو يرزق أو يضر أو ينفع أو يحيي أو يميت إلا الله.

والتوجه الكامل لله في شعائر التعبد، فلا يُصلّي إلا لله، ولا يصوم إلا لله، ولا يُزكّي إلا لله، ولا يحجّ إلا لله.

والتوجه الكامل لله في الدعاء، فلا يدعو إلا لله.

والتوجه الكامل لله في أُصول الحكم، فلا يحكم إلا بما أنزل الله.

والتوجه الكامل لله في الأخلاق والسلوك، فلا يتخذ قِيَمًا أخلاقية ولا قواعد سلوكية إلا ما أمر به الله.

هذا هو الإسلام الحقيقي، وهذا هو المدلول الحقيقي لشهادة ألاّ إله إلا الله.

• • •

والمجتمع المُسلم هو المجتمع الذي يلتزم بهذا الأمر. فتكون أحكامه، وتكون أفكاره ومعتقداته وأخلاقه وسلوكه جميعها مُسْتَمدَّة من كتاب الله وسُنَّة رسوله.

وحين يتمّ ذلك يكون الله هو المعبود حقًّا في ذلك المجتمع.

إنه لا يكفي أن نعبد الله داخل المسجد، بإقامة الشعائر التعبديّة هُناك، إذا كنا

Marfat.com

نخرج من المسجد فتكون لنا وجهة أُخرى غير الله، ومصدر آخر نتلقى منه أفكارنا ومعتقداتنا وسلوكنا وأحكام حلالنا وحرامنا غير الله.

ما قيمة تلك الشعائر التعبدية التي أقناها إذن داخل المسجد.

إن القيام بالعبادة داخل المسجد يجب أن يكون معناه الحقيقي أننا أقررنا وشهدنا بالعبودية لله وحده، فجئنا نؤدّي فرائض العبادة التي أمرنا بها الله. فإذا كُنّا بمجرد خروجنا من المسجد نتجه إلى مصدر آخر غير الله، نستمد منه أحكامنا وشرائعنا ومنهج حياتنا، فمعنى هذا أننا اتخذنا إلهين اثنين في الحقيقة لا إلهًا واحدًا! فالإله الأول هو الذي عبدناه داخل المسجد بشعائر التعبد من صلاة ودعاء، والإله الثاني هو الذي عبدناه خارج المسجد. وتلقينا منه أحكام الحلال والحرام، وتنظيمات المجتمع وعلاقات الأفراد! والله يقول لنا محذرًا في كتابه العزيز:

﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ (سورة النحل: الآية ٥١).

فهل نكون قد عبدنا الله الواحد ـ الذي أقررنا بوحدانيته بألسنتنا ـ إذا خصصناه بجزء واحد من العبادة ثم أخرجنا بقية العبادة عن اختصاصه سبحانه وتعالى، أم نكون في الحقيقة قد أشركنا به إلهًا آخر. وكذبنا في شهادتنا التي شهدناها بألسنتنا، لأننا نقضناها في واقع حياتنا.

وهل يتقبَّل الله مِنّا ذلك؟

هل يتقبَّل مِنّا أن نذهب لعبادته داخل المسجد، ولو تنسكنا هناك وذرفنا الدموع من شدة التأثر، ثم نوليه ظهورنا أول ما نخرج من المسجد. ونتجه إلى سواه، نستمد منه منهج الحياة؟

فلننظر ماذا يقول الله لنا في هذا الأمر الخطير:

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾

(سورة النساء: الآية ٦٥).

Marfat.com

فيقرر الله بكلام واضح حاسم أن الإيمان ليس زعمًا باللسان، وإنما محك الصدق في هذا الزعم هو التحاكم إلى شريعة الله.

ولنتدبر الآيات الخاصة بهذا الشأن من أولها:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ[1] وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ (سورة النساء: الآية ٦٠ـ٦٥).

بدأت الآيات بذكر قوم يزعمون أنهم آمنوا بالله وآمنوا بالقرآن، ثم هم يريدون أن يتحاكموا لغير شريعة الله، ثم انتهت بتقرير رباني حاسم أنهم لا يؤمنون حتى يتحاكموا إلى شريعة الله، ويسلموا في داخل أنفسهم أنها هي الشريعة التي يجب التحاكم إليها، وإلاّ فهم على وضعهم الحاضر غير مؤمنين.

والقرآن واضح جدًّا في تقرير هذه الحقيقة.

خُذْ مَثلاً هذه الآيات من سورة النُّور:

﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ (سورة النُّور: الآيات ٤٧ـ٥٢).

---

(١) كل حكم غير حكم الله فهو طاغوت. ولفظ الطاغوت يُطْلَق في القرآن على كل شيء يتبعه الناس ويعبدونه غير الله. فالأصنام طواغيت. وحكم غير الله طاغوث.

Marfat.com

فهؤلاء قوم يقولون آمنا بالله وبالرسول. أي يقولون : نشهد ألا إله إلا الله ونشهد أن محمّداً رسول الله ! ويزيدون على ذلك فيقولون : أطعنا ! فيزعمون الطاعة كذلك !

﴿ ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك، وما أولئك بالمؤمنين ﴾.

فما هو التولي الذي حدث من هذا الفريق فنفى عنه صفة الإيمان وقال الله عنه : ﴿ وما أولئك بالمؤمنين ﴾ ؟

هذا هو الذي تبينه الآية التالية :

﴿ وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون ﴾.

فهذا الفريق الذي ينفي الله عنه الإيمان هو الذي يُدْعَى لتحكيم شريعة الله فيعرض عنها. وسواء كان إعراضًا قلبيًا، أو إعراضًا ظاهرًا، فكِلاهمُا ينفي الإيمان ويلغي حقيقة الشهادة التي ينطقون بها بأفواههم. لأن الله يقرر في آية سورة النساء التي سبقت الإشارة إليها أن التسليم القلبي شرط للإيمان :

﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجًا مما قضيت ويسلموا تسليمًا ﴾.

ثم يمضي السياق يُبيِّن حال أولئك المنافقين : أنهم إذا أعجبهم حكم الله في أمر من الأُمور، أو رأوه يحقِّق مصلحة لهم يأتون إليه مذعنين. ويُندِّد القرآن بهم على هذا السلوك المعوج، الذي يتحاكمون فيه إلى شريعة الله مرة ويعرضون عنها مرة حسب الأهواء والمصالح بعد أن ثبّت عليهم وصف عدم الإيمان.

أمَّا المؤمنون فحالهم مختلف. وآية إيمانهم أنهم يتحاكمون إلى شريعة الله.

﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ﴾.

وتقرر الآية الأخيرة أن هؤلاء الذين يتحاكمون إلى شريعة الله، ويطيعون الله ويخشونه هم الفائزون حقًّا.

Marfat.com

من ذلك يتبيَّـن لنا بوضوح أن المحك الحقيقي للإيمان هو التحاكم إلى شريعة الله. وأن الناس إن قالوا بألسنتهم: لا إله إلا الله، محمّد رسول الله، وإن أدوا جزءًا من العبادة المفروضة ثم رفضوا الالتزام ببقيتها فما هم بمؤمنين.

ويتبيَّـن لنا كذلك أن العبودية لله وحده ـ وهي مفهوم الإقرار بالشهادة ـ لا تتحقَّق في عـالم الواقع حتى يُعْبَدَ الله عبادة شاملة. تشمل أُصول الاعتقاد، وسائر التعبُّد، والتحاكم إلى شريعة الله، وتطبيق منهج الله في كل مجال من مجالات الحياة. وأن التحليل والتحريم بغير ما أنزل الله لون من الشّرْك لا يختلف عن شرْك العبادة بحالٍ من الأحوال. يقول القرآن عن المشركين:

﴿ لَوْشَآءَ ٱللَّهُ مَاعَبَدْنَا مِنْ دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَاحَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ﴾
(سورة النحل: الآية ٣٥).

والسياق يُنَدِّد بهم لأنهم يَدَّعون أن هذا الشرْك الذي يُمارسونه هو بأمر الله ومشيئته مع أن الله أرسل إليهم الرُّسُل ينهونهم عن الشرْك. ولكن المهمّ في الآية أن المشركين يحددون شرْكهم في أمرين:

﴿ما عبدنا من دونه من شيء﴾ ﴿ولا حرمنا من دونه من شيء﴾

فالتحليل والتحريم بغير إذن من الله كعبادة الأصنام والأوثان سواء بسواء

• • •

والإسلام ليس مجرد عقيدة وجدانية منعزلة عن واقع الحياة.

وليس هناك دين منزل من عند الله هو عقيدة فقط بغير شريعة تحكم الحياة. إنما البشر هُمُ الذين يَصْنعون ذلك من عند أنفسهم فيشركون! ولنرجع إلى القرآن لنرى حقيق هذا الأمر:

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا

Marfat.com

قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (سورة المائدة: الآيات ٤٤ ـ ٤٧).

فالتوراة التي أُنزلت إلى اليهود فيها عقيدة وشريعة. والإنجيل الذي أُنزل على النصارى فيه عقيدة وشريعة. وكذلك القرآن:

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

(سورة المائدة: الآيات ٤٨ ـ ٥٠)

حقيقتان تقررهما هذه الآيات:

الأُولى: أن كل دين منزل من عند الله هو عقيدة وشريعة في ذات الوقت. عقيدة تحكم الوجدان، وشريعة تحكم واقع الحياة.

والثانية: أن كل حكم غير حكم الله فهو جاهلية. وأنه لا يوجد إلا نوعان اثنان من الحكم: حكم الله وحكم الجاهلية. فالمؤمنون هم الذين يتبعون حكم الله، أما الذين يتحاكمون لغير ما أنزل الله، أي يتبعون حكم الجاهلية فما أولئك بالمؤمنين.

• • •

وإذا كانت تلك هي حقيقة الدين الربّاني فإن البشر من عند أنفسهم هم الذين فَصَلوا العقيدة عن الشريعة، وجعلوا الدين عقيدة فقط، وقالوا إن الدين صِلَة بين

Marfat.com

العبد والرب مكانها القلب، ولا علاقة لها بواقع الحياة ! إنما واقع الحياة تحكمه شرائع يضعها البشر لأنفسهم. وبذلك خرجوا من دين الله وأصبحوا في الجاهلية ! وهذا ما وقع للنصارى في أوربا بصفة خاصة إذ فَصَلوا العقيدة عن الشريعة وفَصَلوا الدين عن الدولة، ووقعوا في هذا الفصام النكد الذي يقسم الحياة قسمين : قسمًا من اختصاص الله سبحانه وتعالى يُمارَس في داخل الكنيسة، وقسمًا لا علاقة له بالله يُمارَس في واقع الحياة !

وامتد بهم الفصام النكد ففَصَلوا بين الدِّين والعِلْم، وبين الدِّين والسياسة، وبين الدِّين والاقتصاد، وبين الدِّين وعلاقات المجتمع.. بل فَصَلوا بين الدِّين والأخلاق !

وماذا كانت النتيجة ؟

كانت النتيجة هي الحيرة والقلق والاضطراب الذي يحكم حياتهم، وحالات الجنون والانتحار والأمراض النفْسيَّة والعصبيَّة المتزايدة. لأن النفْس البشرية الواحدة يحكمها إلهان مختلفان أو آلهة متعددة : إله في داخل الكنيسة، وإله أو آلهة متعددة في السياسة والاقتصاد والاجتماع والعِلْم والفِكْر والأخلاق. والله يمثل لهذه الحالة في القرآن فيقول :

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (سورة الزّمُر : الآية ٢٩).

والمَثَل مضروب لتقريب حقيقة الأُلوهية للعرب المخُاطَبين بهذا القرآن أوّل مرة، وقد كان عندهم نظام الرق. فيقول لهم : هذا عبد يملكه شركاء متشاكسون كل منهم يأمره بأمر يختلف عن صاحبه ويجذبه إلى ناحيته، فهل تكون حاله في هدوء وسكينة وسلام مثل العبد الذي يملكه رَجُل واحد فيوجه إليه أوامر واحدة في اتجاه واحد ؟ طبعًا لا يستوون !

وهذا نفسه هو حال الجاهلية المعاصرة حين تعبد إلهًا في المعبد، وآلهة أُخرى

Marfat.com

متشاكسة خارج المعبد، فلا تعرف السلام ولا الهدوء ولا الطمأنينة إنما يحكم حياتها القلق والاضطراب.

• • •

ولقد كان المسلمون بمنجاة من هذا كله وهم يعبدون إلهًا واحدًا لا شريك له. يعبدونه في المسجد وخارج المسجد. يتوجهون إليه باعتقاد صحيح في وحدانيته، ويتوجهون إليه بشعائر التعبد، ويتوجهون إليه في شؤون حياتهم المختلفة فيتحاكمون إلى شريعته وينفذونها في واقع الحياة.

وكانوا بذلك كما وصفهم الله في كتابه: ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (سورة آل عمران: ١١٠).

ولكن المسلمين ظلوا يبعدون عن حقيقة دينهم فَهْمًا وسلوكًا حتى أصابهم الضعف فتمكن منهم أعداؤهم.

وحين تمكَّنوا منهم فقد أرادوا أن يقضوا على عنصر القوَّة في كيانهم لكي لا يعودوا إلى النهوض مرةً أُخرى. وكان أوّل ما اتجهوا إليه في البلاد الإسلامية التي حكموها هو تنحية شريعة الله عن الحكم ووضع القوانين الوضعية بدلاً منها.

ثم ظلوا يعملون، ومعهم أدواتهم من العُمَلاء الذين تأثروا بهم، على حصر الإسلام رويدًا رويدًا في دائرة الاعتقاد الوجداني والشعائر التعبدية، لا صِلَة له بالسياسة ولا الاقتصاد ولا علاقات الأفراد في المجتمع ولا القيم الخلقية ولا السلوك الواقعي...

ونرى أثر ذلك واضحًا في البلاد التي لا تحكم بشريعة الله، وتروح تستورد المبادىء والنُظُم من الشرق والغرب، فتكون النتيجة هي التبعية للشرق والغرب، وزوال العزة التي كانت لهم يوم أن كانوا مؤمنين: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة المنافقون: الآية ٨)، وتكون النتيجة هي شيوع أمراض الجاهلية في المجتمع الإسلامي، من تحلل خلقي وفكري، وقلق وحيرة واضطراب، وقبل ذلك كله غضب

Marfat.com

الله وسخطه على الذين خالفوا عن أمره وخرجوا عن طاعته: ﴿ ومَن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾.

ودين الله واضح لا لبس فيه:

﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ (سورة يوسف: الآية ٤٠).

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ ﴾ (سورة الشورى: الآية ٢٦).

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾ (سورة الأحزاب: الآية ٣٦).

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴾

(سورة الأنعام: الآيتان ١٦٢ ـ ١٦٣).

فلنعبد الله مخلصين له الدين. ولتكن آية اخلاصنا تحكيم شريعة الله، لكي نكون حقًا مسلمين.

Marfat.com

الإيمان بأسماء الله وصفاته

﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾
(سورة الأعراف: الآية ١٨٠).

﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾
(سورة الحشر: الآيات ٢٢ـ٢٤).

قلنا في الفصول الأولى من الكتاب إن القرآن يُعَرِّف البشر بالله سبحانه، لكي يعبدوه حق عبادته، ويتوجهوا إليه وحده في كل أُمورهم بغير شريك. فإنك لا تستطيع أن تقوم بالعبادة الحقيقية ولا التوجّه الحقيقي إذا كنت لا تعرف مَنِ الذي تعبده وتتوجّه إليه، أي إذا لم تعرف صفاته التي يتصف بها، حتى تكون عبادتك عن معرفة وعلم.

والله يصف نفسه في كتابه الكريم بالصفات التي يريد مِنّا سبحانه وتعالى أن نعرفه ونصفه بها. فليس لنا أن نبتدع من عندنا صفات لله غير التي وصف بها نفسه أو وصفه بها رسوله الكريم صلى الله عليه وسلّم، فإن هذا لا يليق بجلال الله وعظمته، ولا بالأدب الواجب من العباد نحو ربهم وخالقهم.

وحين يقرأ الإنسان القرآن بحسٍّ مُتفتِّح، ويتدبّر آياته، فإن قلبه يمتلىء بالخشوع لله، والخشية منه سبحانه، والتطلع إليه في ذات الوقت بالحب والرجاء..

مَنِ الذي يقرأ قوله تعالى:

﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (سورة الحشر: الآية ٢١).

أو قوله تعالى:

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ

Marfat.com

وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ (سورة الزمر: الآية ٢٣).

أو قوله تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾ ﴾ (سورة الزمر: الآية ١٨).

مَنِ الذي يَقرأ هذه الآيات وأمثالها دون أن يمتلىء وجدانه بحبِّ الله والخشوع له، والرغبة في التقرُّب إليه، والعمل على رضاه؟ وإذ يحسّ بهذه المشاعر فإن القرآن يُيَسِّر له التقرُّب إلى مولاه بأن يعرفه بأسمائه وصفاته وأفعاله.

فحين يعلم أن الله رحيم، وأنه يقول: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ (سورة الزمر: الآية ٥٣).

ويقول: ﴿ فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ ﴾ (سورة البقرة: الآية ١٦٠).

ألا يجعله ذلك يتطلَّع لرحمة الله، ويطمع في أن يغفر له الله ذنوبه حين يخلص إليه ويتوب!

وحين يعلم أن الله هو الرزّاق ذو القوَّة المتين: ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ (سورة الذاريات: الآية ٥٨). وأنه هو الذي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدِّر: ﴿ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ ﴾ (سورة البقرة: الآية ٢٤٥).

ألا يجعله ذلك يتطلَّع إلى الله ليبسط له في الرزق، ويغدق عليه من نعمه، وهو المنعم الوهّاب؟

وحين يعلم أن الله هو الواحد القهّار:

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ ﴾ (سورة ص: الآية ٦٥).

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿١٥﴾ ﴾ (سورة الرعد: الآية ١٥).

Marfat.com

ألا يمتلىء قلبه رهبة من الله، الذي يقهر بسلطانه كل شيء، والذي تستجيب السماوات والأرض لقهره، فلا تملك أن تخرج على طاعته، والذي لا يتم في الكون كله إلا ما يشاء؟

وحين يعلم أن الله هو علاّم الغيوب، الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض:

﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٣﴾ ﴾ (سورة سبأ: الآية ٣) ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾ (سورة سبأ: الآية ٢). ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ﴾ (سورة طه: الآية ٧).

ألا يتحرّز وهو يهم بأي عمل من الأعمال، لأنه يعلم أن الله يراه ويراقبه، بل إنه يعلم حتى خلجات شعوره التي لا يحدّث بها أحدًا من البشر، وأنه لا يمكن أن يتخفى عن الله في عمل أو فِكْر أو شعور؟!

وحين يعلم أن الله هو المهيمن على السماوات والأرض، لا يحدُث فيها شيء إلا بإذنه، وهو وحده الذي يدبر الأمر، ولا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم:

﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾ (سورة البقرة: الآية ٢٥٥).

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾ (سورة النجم: الآية ٤٢).

ألا يجعله ذلك يتوجه إلى الله وحده، فهو العلي العظيم الذي لا يساويه أحد ولا يعلو عليه أحد. ولا يتوجه إلى أحد سواه في السراء ولا في الضراء، فلا أحد غيره يكشف السوء، ولا أحد غيره يزيد السرور؟

وهكذا.. وهكذا.. كلما علم صفة من الصفات ازداد معرفة بالله، وازداد طاعة وتقرّبًا إلى الله.

مِنْ أجلِ هذا يُكرِّر القرآن أسماء الله الحسنى، ويأمرنا أن ندعوه بها، ويعرفنا

يوزع مجاناً ولا يباع

Marfat.com

بها رسوله صلى الله عليه وسلّـم فيقول: «إن لله تعالى تسعة وتسعين اسمًا، مائة إلا واحدًا، مَنْ أحْصاها دخل الجنَّة» رواه الشيخان. (والمقصود بالإحصاء ليس مجرّد ذكرها باللسان والقلب غافل عن معناها، بل المقصود أن يمتلىء القلب بها ويتدبرها فينعكس أثر ذلك في السلوك).

● ● ●

نتبين من ذلك إذن أن أسماء الله وصفاته وأفعاله الواردة في القرآن، هي مثل آيات قدرة الله في الخلق وفي الرزق، وفي الإحياء والإماتة، وفي إجراء الأحداث وفي علـم الغيب... المقصود بها التعريف بالله، لتزداد معرفة العباد بربهـم، ويعبدوه على بصيرة، ويبعدوا عن الشرْك والضلال.

نعم! إن ضلالة البشرية الكبرى هي الشرْك[1].

والله سبحانه وتعالى، وهو الواحد الأحد:

﴿قل: هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد﴾.

يحب لعباده أن يهتدوا إلى حقيقته، ولا يشركوا به، ويحب أن يعاونهم على معرفة هذه الحقيقة، وييسرها لهم، لأنه بعباده رؤوف رحيـم. وكمـا يعرفهم بآيات قدرته في السماوات والأرض فإنه في ذات الوقت يعرفهم بأسمائه وصفاته وأفعاله، ولا انفصال بين هذه وتلك.

فهو حين يعرفهم بآياته في الخلق، يعرفهم بأنه هو «الخالق» «الباري» «المبدع» «بديع السماوات والأرض».

وحين يعرفهم بآياته في الرزق، يعرفهم بأنه هو «الرزّاق» ذو القوّة المتين.

وحين يعرفهم بهيمنته على كل شيء في هذا الكون، يعرفهم بأنه «المهيمن» وبأنه «يدبر الأمر».

---

(١) إذا كانت هناك في العصر الحاضر ضلالة أكبر هي الإلحاد وإنكار وجود الله أصلاً فهذه كمـا قلنا ضلالة مُفْتَعلة وغير حقيقية. والفطرة ـ حتى في ضلالها ـ تأباها، كمـا مَرَّ بنا من حديث رائد الفضاء الروسي جاجارين.

Marfat.com

وحين يعرفهم بآياته في الإحياء والإماتة، يعرفهم بأنه «هو يحيي ويميت».

وحين يعرفهم بقدرته على البعث، يعرفهم بأنه «يبعث من في القبور».

وحين يعرفهم بأنه سبحانه وتعالى متفرد في كل شيء، متفرد في الكمال وحده، ومتفرد في كل شيء وحده، فإنه يقول لهم:

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ (سورة الشورى: الآية ١١) ويقول لهم:

﴿ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾ (سورة الروم: الآية ٢٧).

• • •

ولقد اختلفت الفرق في تأويل الأسماء والصفات والأفعال وما كان ينبغي لها أن تختلف!

إن هذه الأسماء والصفات والأفعال الواردة في القرآن وفي الحديث يعرفنا الله بها على نفسه لنتعرف عليه. وما كان ينبغي أن تكون هي التي تضللنا عن معرفة الله! لولا أن هذه الفرق الضالة قد فتنت عن حقيقة الإسلام البسيطة الواضحة بنظريات وأفكار دخيلة على الإسلام. والقرآن ـ دليلنا وهادينا ـ واضح في هذا الأمر كل الوضوح.. فهو يحدثنا عن أسماء الله، تدل على صفات، وتنشأ عنها أفعال:

«فالوهاب» اسم من أسماء الله الحسنى، وهو صفة لله تعالى، وينشأ عنها أن الله يهب ما يشاء لمن يشاء..

و«الرزاق» اسم من أسمائه، وهو كذلك صفة من صفاته، وينشأ عنها أن الله يرزق العباد بما يشاء من رِزْق..

ونحن نؤمن بهذه الأسماء لأنها وردت في كلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم، ولأننا نراها ونلمسها ونشهدها في الكون من حولنا وفي ذات أنفسنا، كما قال تعالى:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ (سورة فصلت: الآية ٥٣).

وكل تدبر في آيات الله في الكون وفي النفس يصل بنا إلى اليقين الكامل بأن كل

Marfat.com

ما وصف الله به نفسه هو الحق كل الحق، فهو الواحد الأحد، وهو المتفرد بالقدرة، المتفرد بالملك، المتفرد بالأمر والتدبير..

فعلينا إذن أن نؤمن بتلك الأسماء والصفات والأفعال وأن نقف كذلك عندما جاء منها في القرآن والحديث ولا نزيد على ذلك.

وهذا هو مذهب السلف..

يؤمنون بها كما وردت، ولا يؤولونها. لأن التأويل ليس من شأن البشر. لا هم طاقة به، ولا ينبغي لهم أن يخوضوا فيه. إنما يأخذون الأمر بالبساطة التي يوضحها القرآن والحديث.

فهذه الصفات حقيقة، ولكنها لا تشبه ما نراه من صفات البشر. فالبشر عاجزون والله قادر. والبشر ناقصون والله كامل. والبشر محجوبون عن الغيب والله علاّم الغيوب. والبشر محتاجون لمن يطعمهم ويسقيهم ويرزقهم والله هو الغني المستغني عن كل أحد وكل شيء. والبشر فانون والله هو الدائم من الأزل إلى الأبد.. فكيف تماثل صفات الله مع صفات البشر، وأفعاله مع أفعال البشر؟

كلا! ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ فصفاته هو متفرد بها سبحانه، لأنها صفات الكمال، وهو المتفرد وحده بالكمال.

والوجود كله يشهد بذلك التفرد، وفطرة الإنسان من أعماقها تشهد به كذلك.

ولا حاجة بنا، ولا حاجة للفطرة السوية، بتأويلات الفرق المنحرفة، سواء منها ما يعطّل الصفات، ومن يبحث في كيفيتها ولم يؤت القدرة على تكييفها، ومن يشبهها بأعمال البشر والله ليس له مثيل..

إنما نقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر.

ونحمد الله على توفيقه.

Marfat.com

Marfat.com

الاسم : ..... المدرسة : .....

Marfat.com

الاسم : ..... المدرسة : .....

Marfat.com

قررت وزارة المعارف تدريس هذا الكتاب وطبعه على نفقتها .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقرر علم التوحيد

للسنة الأولى الثانوية

يوزع مجاناً ولا يباع

١٣٩٥ - ١٣٩٦ هـ

١٩٧٥ - ١٩٧٦ م

Marfat.com